عمل منشور، إلى أن ابن سعود كان يواجه وضعاً معقداً، وانه سعى في أكثر من خيار واحد(25).

فقد أرسلت إشارة بريطانية حول نشاطات يوسف ياسين في دمشق. ونقل عنه قوله علناً: إن ابن سعود يخطط لمقاطعة بريطانيا، وإرسال أسلحة للفلسطينيين، إذا لم تصغ لمطالبه في فلسطين. وكانت الإشارة تتضمن أسماء زعم انها قيادات ارهابية، مثل نبيه عزمي. وكان لياسين اتصالات بها. ورد ابن سعود بالانكار التام لهذه الوقائع جملة وتفصيلاً. وكدليل على تعقيدات الموقف، يشار إلى أن نبيه عزمي نفسه كان موظفاً عند ابن سعود(26)، وكذا القاوقجي، الذي لعب دوراً عسكرياً رئيسياً في الاحداث الفلسطينية، سنتي 1936 و1948، فقد كان على صلة وثيقة بابن سعود، إذ انه عمل على إعادة تنظيم قوات ابن سعود على التخوم الغربية من الحجاز كما اشترك في عمليات عسير. وينتهي هذا الفصل باشارة مهمة نجدها في رسالة ابن سعود إلى البريطانيين حول موقفه من إحلال اليهود في فلسطين(27)، فيقول:

"لو قلت لكم أن هناك ذرة واحدة في جسدي، لا تدعوني إلى قتال اليهود، لكنت أكذب... لو ذهبت سائر املاكي وتوقف نسلي لكان اسهل علي من أن أرى لليهود موطئ قدم في فلسطين".

لم تكن المسألة الفلسطينية الشاغل الوحيد لابن سعود سنة 1937. وتشير البعثة البريطانية في جدة: أن "ابن سعود قد غدا أصولياً متشدداً"(28).

ومناسبة هذا الاستنتاج هي إعلان ابن سعود الذي نشر في الجريدة شبه الرسمية "أم القرى" في مكة بتاريخ 30 نيسان 1937. كان الإعلان يهاجم الشباب السعودي الذي يطالب "بـ العصرنة، والتقدم، والمدنية، والحرية وما شابه"، فهؤلاء إنما يقودهم الشيطان. وكانت هناك اشارة تخصيص لتلك النساء اللاتي يختلطن بالرجال تحت دعوى التقدم، مهملات لأدوارهن كزوجات وأمهات وربات بيوت. ود أدان الملك ذلك كله بوصفه باباً للانحلال الخلقي.

كان هذا الخط المتشدد موضع حيرة لبعض الوقت عند البعثة، في الموقف من التحديث والتغريب. ولقد استنتج أن الملك إنما كان حساساً لحالة التململ المتنامية في الحجاز، والتي تعود بسببها الرئيسي إلى مظاهر الخيبة الاقتصادية في المنطقة، والتي حلت بتأثير الانكماش العالمي. وتنقل البعثة من خطاب لابن سعود في اجتماع لنبلاء الحجاز في مكة قوله:

"يا شعب مكة، يتملكني الغضب إزاءكم، فرغم كل أفضالي التي ابديها معكم، فمازلتم أناساً ناكرين للجميل، تشيعون الدعايات الكاذبة ضدي.... احذركم وأطلب إليكم أن تتخلوا عن هذا العمل الشيطاني والا والله، دفعت إليكم النجديين الذين لا يرحمون فلا يتركون في مكة غير رؤوس فصلت عن اجسادها"!

وفي المسألة الفلسطينية كذلك، برز تعقيد آخر كان فيلبي طرفاً فيه هذه المرة.
وسنرى، الآن ولاحقاً، العلاقة الاستثنائية بين ابن سعود وعبد الله فيلبي. إلا أن الفصل الاكثر تميزاً في هذه العلاقة المضطربة كان الإعلان الذي اضطر ابن سعود إلى اصداره في صيف سنة 1937. فقد نشر ممثلو ابن سعود في 18 آب التصريح التالي:
"ربما يعتقد البعض أن آراء فيلبي تعبر عن آرائنا... من الضروري التأكيد أن هذه الآراء هي آراؤه الشخصية ولا تعبر في شيء عن أفكارنا".
ورغم أن فيلبي ليس مستشاراً، أو موظفاً رسمياً عند ابن سعود، الا أن الاخير كان مدركاً أن اوساطاً كثيرة خارج العربية السعودية ربما كانت معذورة في الاعتقاد انه بشكل ما، ناطق باسم ابن سعود أو ممثل له. وكانت مناسبة الاعلان السعودي الحازم هو قيام فيلبي بنشر آراء دعت إلى نوع من التفاهم حول المطالب اليهودية في فلسطين، بينما كان الموقف الرسمي لابن سعود موقفاً حازماً لا غموض فيه: فهو قد رفض مقترحات لجنة بيل(peel commission) في سنة 1937، التي أوصت بتقسيم فلسطين بين اليهود والعرب.
ولم يقف إزعاج فيلبي، في هذه الفترة عند حدود الموضوع الفلسطيني فقط، فقد طلب منه الملك أن يرأس بعثة استكشافية إلى الحدود اليمنية، لوضع خرائط دقيقة لمنطقة نجران. وبين آيار وأيلول، كان فيلبي بعيداً عن البلاط، ينفذ أوامر الملك بحماية حراس سعوديين مسلحين. ثم تقدم من نجران متجاوزاً بمسافات تعليمات ابن سعود وجاعلاً طريقه في المحميات البريطانية في حضرموت والمكلا. وعندما بلغ الخبر عدن، ارسل له القائد البريطاني لايك برقية يأمره فيها بالانسحاب فوراً مع المجموعة السعودية المسلحة.
امتثل فيلبي للأمر، لكنه لم يستطع مقاومة رغبته في قلي فطيرة أخرى، وذلك حين رد انه الآن في صدد مراجعة قيادته للاشراف على إخلاء المنطقة المحتلة.
لم يؤد ذلك إلى اغضاب البريطانيين فحسب، وانما إلى تغيير مباشر في سياستهم، مما ادى إلى مد منطقة الحماية بحوالي7000 ميل مربع اضافي، الأمر الذي لم يكن بعيداً كثيراً عن عين إمام اليمن. الا أن فيلبي، وقبل أن يصل إلى مكة، عرج على سد مأرب، رغبة في مزيد من اغضاب امام اليمن.
لكن فيلبي، ورغم كل هذه التعقيدات التي تسبب بها، كان قد انجز على الاقل خرائط ممتازة لمنطقة الحدود لم تكن قد انجزت من قبل.
لم تنته مشاكل فيلبي بعد، ففي أثناء زيارة له إلى لندن في صيف 1937، وفي محاضرة له امام الجمعية الملكية لوسط آسيا، حول نتائج بعثته الاستكشافية، قال لجمهور أخذته الدهشة، أن

البريطانيين في حضرموت أرادوا اطلاق النار عليه بعد دخوله إلى محميتهم، فهب إذ ذاك، عسكري بريطاني كان حاضراً صارخاً في وجهه: كاذب! وانتهى الاجتماع إلى حال هي أقرب إلى الفوضى. وكان في وسع فيلبي أن يبقى في صيف 1937 على صلة بالبلاط السعودي حتى وهو في لندن. فقد كان الأمير سعود (ولي العهد منذ سنة 1933) والأمير محمد يمثلان والدهما الذي دعي كعاهل في حفل تنصيب الملك جورج السادس، وقد كان لحال القلق التي تسود الحجاز علاقة بقرار ابن سعود البقاء في المملكة، كما كانت حاله، في دعوة 1919. وبين المناسبات التي كان لفيلبي حديث فيها قبل وقت قصير، كما رأينا، الا أن المناسبة مرت بسلام.

كان فيلبي في هذه النقطة، كما في سواها، قد غدا، كما يبدو، أكثر عدوانية.

الا أن ما يعنينا الآن هو العودة، ثانية،إلى سياق الاحداث لدى ابن سعود. فقد كان لابن سعود، في هذه الفترة غير صورة توضح كيفية أدائه لمهامه الكثيرة، حاكماً، ورأساً لعائلة، وشخصية قائمة في السياسة الدولية، فضلاً عن رحلات الصيد المؤللة والكثيرة(29).

وبين الصور، ما يقدمه لنا أفراد البعثة الطبية الاميركية في البحرين، الذين زاروا المملكة بناء لدعوة الملك سنة 1937. تبدأ الصورة في أثناء استعداد المجموعة للقاء ابن سعود الذي كان قد ترك الرياض في رحلة صيد. وسيكون من الافضل العودة إلى مذكرات البعثة نفسها والصورة التي تقدمها لنا:

10 كانون الثاني 1937.

لم نفعل امس غير القليل عدا خروجنا قرابة الحادية عشرة صباحاً للالتقاء بالملك وصحبه، في أثناء عودتهم من الصيد. التقينا بهم في السهل الممتد خارج المدينة، ويا له من منظر! لمحنا اولاً غمامة من الغبار عند الافق. وبدأت الغمامة تتسع كلما اقتربت منا، لنتبين فيها أخيراً خطاً من السيارات يتجه صوبنا، وخلفه خط آخر، ثم آخر، إلى أن غدا السهل كما لو كان مغطى بمجموعات من السيارات مع زعيق الفرامل وشحط الدواليب. ناداني الملك إلى سيارته، وبعد سؤاله واطمئنانه إلى حالنا بعد الرحلة الطويلة، قال: وأين أبو لولا الذي دعوته ليأتي معك؟ فاخبرته أن الاب فان بيرسم لم يكن قادراً على المجيء وأني أحمل إلى جلالته رسالة منه. ثم تقدم الأمير سعود، ابنه الاكبر، مصافحاً بحرارة: ومرحباً بنا في الرياض، إذ أن والده نصبه أميراً عليها، وينتقل المشهد إلى قصر الملك في اليوم التالي حين تنقل مذكرات الكاتب اطرافاً من الاحاديث التي تبودلت مع الملك سعود وآرائه حول عصبة الأمم والرئيس روزفلت واليهود.

هذا الصباح، دعينا إلى القصر لمقابلة الملك. كان في مكتبه مع يوسف ياسين، وزيره، والامير سعود وعدد من المستشارين.كان مرتاحاً جداً تكلم طويلاً، مطمئناً بالتفصيل عن كل واحد من افراد

المجموعة التي جاءت مع د . دام قبل سنتين.ثم نظر في صفحات الكتاب الذي ارسله إليه فان بيرسم بعنوان "حياة المسيح لدى الناس" لباترسون سميث. وكانت ملاحظته الفورية الأولى عن قوله: هو يقول أن اليهود صلبوا المسيح، فلماذا لا تعاملون اليهود اليوم كما يستحقون أن يعاملوا وكما يعاملون في ألمانيا اليوم؟ فقلت: إن تلك هي أمر مناف لأوامر المسيح، وان الامة التي ترد الشر بالشر ليست مسيحية!. وكانت قد بدأت في المذياع قراءة الاخبار العالمية، فبدا الملك مهتماً جداً بالاخبار الاوروبية، وعلق بإسهاب حول حساسية الموقف العسكري. وحين ذكرت عصبة الأمم علق ساخراً أنها بلا حول أو قوة انها كمجلس مليء بالنساء العجائز، وان كل محاولة لاصلاحها باتت تشبه محاولة اعطاء دواء لشخص ميت. ثم أبدى اعجابه بأميركا لبقائها بعيدة عما يجري، وحين قرأ الخبر الأخير وكان فيه "أن مجلس شيوخ الولايات المتحدة أقر قانوناً فيه أن كل مواطن يغادر الولايات المتحدة للقتال في اراض اجنبية، كاسبانيا مثلاً، سوف يخسر جنسيته"، عبر الملك عن تقديره الحار لسياستنا الخارجية. ثم وجه حديثه إلي: "انا احب بلادكم، ومعجب برئيسكم، وأنا ممتن للخدمات التي أداها افراد بعثتكم لي ولشعبي. فقد اتيتم ولا هدف لكم الا مساعدتنا وشل لساني ترحيبه الحار فلم اجد غير أن اقول اني آمل أن الصداقة ستستمر.

وبعد اسبوع آخر يسجل كاتب المذكرات ملاحظاته حول الحال الصحية لعائلة ابن سعود، ذاكراً، على وجه الخصوص، اضطرابات العين التي كان يشكو منها هو وابناؤه وبناته:

17 كانون الثاني 1937، كان معظم عملي في المقر الملكي مع عدد لا ينتهي من افراد عائلة الملك وأقاربه في بلادنا يتحدثون عن عائلة يشكل افرادها فريق بايسبول، اما هنا فنجد جيشاً في عائلة واحدة. العملية الاولى التي اجريتها كانت لابنة شقيق الملك طفلة صغيرة تؤلمها عينها ولا نور فيها. فأزلتها ووضعت أخرى اصطناعية بدلاً منها للمحافظة على الشكل العام. وأفراد كثر من بنات الملك وابنائه الصغار خضعوا لعلاج يومي، إذ كانوا يشكون من الرمد، وبدت حالتهم بعد اسبوع واحد افضل بكثير. واليوم كانت لي عدة علميات لمعالجة انشعار العين. وقادتني جولاتي اليومية إلى متاهات غرف القصر وممراته التي لا تنتهي ، فكل زوجة أو محظية أو شقيقة أو ابن ... كل له شقته الخاصة في القصر، أو يربطها بالقصر ممر مفرقي وسيكون من السهل أن يضيع المرء فيها بلا دليل، لأن الممرات أشبه بسراديب المدافن.

وحين استدعي كاتب المذكرات لوداع الملك أتيح له أن يرى على الطبيعة أسلوب ابن سعود في تسيير الأعمال وليسجل موقع مستشاري ابن سعود في ادارته:

أمس الأول غادر الملك إلى الكوف منتجعه الصحراوي للصيد شتاءً.وعندما استدعيت لوداعه في الليلة السابقة لمغادرته، بدا منهمكاً في لائحة من القرارات التي اتخذت من دون موافقته الرسمية،

كان في مجلسه الخاص الذي يشبه كثيراً مكتب عمل في المنزل: على الحيطان خرائط للقارات، وفي زاوية من طاولة ضخمة مسطحة من اعلاها وعليها رزم من الاوراق الحسنة الترتيب وقربه هاتف كان الملك يستعمله دون انقطاع، وبلهجة آمرة عنيفة تشبه لهجة رجل أعمال اميركي.وفي زاوية أخرى موقد معدني قديم يشبه كثيراً ذاك الذي كان يستعمله جدي.وحول الغرفة ينتشر صف من الكراسي والمقاعد ذات المتكآت، جلس الملك على واحدة منها، بينما جلس مستشاروه الستة بكماً على المقاعد الأخرى .لم يلاحظ الملك دخولي، إذ كان مستشيطاً غضباً بسبب إسراف احدهم في الانفاق. قدمت لي كرسي فجلست عليه خلف عمود حجبني عن عين الملك، لكن أتيح لي أن اشهد هياجه غير الاعتيادي في وجه وزرائه. فبدوا اشبه بأطفال ماكرين ضبطهم المعلم في حالة إهمال، كل يريد أن يقول انه بريء، لكنه لا يجرؤ، وأخيراً ضغط على الزر الكهربائي الموصول بكرسيه فدخل الأمير سعود. دخل سعود متهللاً، لكن تعابير وجهه تغيرت فجأة حين سأله والده بغضب: كيف سمح بالانفاق على هذا القدر من الحاجيات والتجهيزات. ثم ختم بقوله من الآن فصاعداً كل عملية إنفاق يجب أن تكون ممهورة بخاتمي الشخصي.

وما أن انتهت العاصفة حتى استعاد الملك بعض مرحه فأمر بشيء ينعش، فأحضر الليمون والتفاح والحلويات والجوز على أطباق كبيرة، ودعينا لمشاركته في المائدة.

بين الملامح الكثيرة التي تكشفها هذه المذكرات: أن ابن سعود هو القوة المحركة لكل ما يحدث في البلاد، من شؤون الدولة إلى استهلاك الحاجيات في القصر. لقد كان هذا الاستغراق في كل المسائل، كبيرها وصغيرها هو الذي منع ابن سعود من تلبية الدعوة لزيارة لندن بمناسبة تتويج الملك جورج السادس.

وبين نتاج زيارة التتويج إلى لندن، كان لابن سعود أن يستقبل لأول مرة أحد أفراد العائلة الملكية البريطانية، بل إحداهن في الواقع،وذلك حين قبلت الاميرة أليس دعوة ابن سعود لزيارة العربية السعودية، يرافقها زوجها آرل اثلون، فوصلت إلى جدة في ربيع العام 1938، ورغم أن ابن سعود كان قد التقى نساء اجنبيات عديدات، واستقبل في الرياض زوجة سير اندرو رايان، الا انها المرة الاولى التي يستقبل فيها امرأة في مجلس عام.وفي كل الاحوال، فلقد لقي الوفد الملكي الزائر في كل مكان منتهى أمارات الود والبساطة والتي وصفتهن في سلسلة من المقالات المنشورة(30) وان تسجل كذلك مولد أبناء جدد للعائلة.

ومن باب المصادفات اللافتة أن الوفد الملكي الزائر، وبعد عبوره شبه الجزيرة بالسيارات، وصل إلى الظهران ليستقبله رجال النفط الاميركيون قبل يوم واحد فقط من تدفق النفط من البئر الذي

سيغدو معروفاً باسم "دمام رقم 7" وقد كانت تلك اللحظة المنتظرة طويلاً باعتبارها الدليل على وجود النفط في الأحساء، وبكميات تجارية، ولم يعد الشعب السعودي، بعدها مضطراً إلى أكل الجراد.

الحياة العائلية

تزوج ابن سعود في هذه الفترة زوجتين ولدتا له أبناء:

1 _ مدحي madhi، والدة الاميرين ماجد وسطام.

2 _ نوف nouf، والدة تامر، الذي انتحر عام 1959 باطلاق النار على نفسه في ميامي بفلوريدا.

كذلك ولد لابن سعود أطفال آخرون في هذه الحقبة:

1 _ تركي، شقيق الملك فهد، ونائب وزير الدفاع حتى سنة 1978.

2 _ بدر، نائب قائد الحرس الوطني، زمن كتابة هذه الصفحات.

3 – نواف.

4 _ نايف، وزير الداخلية عند كتابة هذه الصفحات، وهو شقيق الملك فهد.

5 _ فواز.

6 _ ماجد، عاش لسنتين فقط، 1934 – 1936.

7 _ سلمان، حاكم الرياض الآن شقيق الملك فهد.

8 _ ماجد.

9 _ تامر.

10 _ عبد الاله.

ويروي جيرالد دي غوري مصادفة لافتة نقلاً عن مسافر غادر الرياض إلى الكويت سنة 1937، قال إن عبدين لابن سعود كلفا بمهمة إحصاء أولاد ابن سعود فوصلا إلى نتيجة مبهجة، وهي أن عددهم هو نفس عدد الفرق في الاسلام، أي 73(31).

ويروي الزركلي كذلك في ما هو اكثر جدية ربما، انه في سنة 1933 طلق الملك زوجة له من شمر يعتقد انها حاولت دس السم له(32). وفي حزيران 1938 توفيت شهيرة والدة منصور، ورغم انها استمرت لفترة طويلة رفيقته المفضلة، الا أنه لم يعقد عليها القران وربما تكون وفاة والدته هي سبب انجراف منصور نحو الشراب(34). وتسجل البعثة البريطانية أن الملك شخصياً ضرب ابنه حين ضبط بالجرم المشهود. وبحسب التقرير نفسه، فان ابناً آخر له و ناصر، كان محظوظاً إذ حجبت عن والده اخبار حفلة شراب اقامها وانتهت بموت واحد من مدعويه على الأقل بعدما إسرفوا في تناول ما يشرب وما لا يشرب.

الفصل التاسع

وسقطت الكأس من الشفاه 1938 – 1945

الولايات المتحدة بلد كبير، ولكن تعلمت أنها لا تستطيع ارسال شيء إلى العربية السعودية من دون موافقة ملك انجلترا.

ابن سعود إلى فلويد اوليغر، عن ب.روبين القوى العظمى في الشرق الاوسط، 7 – 1941، ص 44

ما انفك الانجليز يحثون العرب على التوحد، اتساءل ماذا هناك خلف ذلك.

ابن سعود عن س. ليتاردل، بريطانيا والعربية السعودية 1925 _ 1939، ص 340

ليعطوا هم واحفادهم بيوت الالمان الذين طردوهم من بيوتهم وأرضيهم

من ابن سعود إلى الرئيس روزفلت، شباط 1945،

حول اداة اسكان الناجين من مذبحة هولوكوست.

عن و.ا. إدي ف. د. ر. يلتقي ابن سعود. ص 34.

عندما استقبل ابن سعود وابناؤه الوفد الملكي البريطاني في آذار 1938، لم يجر الأمر في فراغ، أو بلا نتيجة. كانت الدعوة موضع نقاش. وحينما قررت الحكومة البريطانية تلبيتها، فقد كان ذلك لرغبة منها في التأكيد على متابعة اقامة أحسن العلاقات مع ابن سعود.

يمكن استنتاج طريقة تفكير الحكومة البريطانية حيال ابن سعود، حول هذه النقطة من خلال مراجعة تفاصيل اجتماع لجنة الدفاع الامبراطوري في 8 تشرين الثاني العام 1937، فلقد جرى التعبير عن المخاوف من "أن يقع ابن سعود، وتحت ضغط الحاجة ونقص الموارد، في اغراء طلب المساعدة من مكان آخر من ايطاليا مثلاً، فيتحول إذ ذاك ضدنا وربما تكون النتائج خطرة(1)".

شكل الوجود البحري الايطالي في البحر الاحمر سفن السطح والغواصات، مصدر قلق للمخططين العسكريين البريطانيين، سواء اكان ذلك على مدخل البحر الابيض المتوسط، ام في تأمين سلامة الطريق إلى الهند. وجاءت اتصالات الايطاليين باليمن لتزيد من مخاوف بريطانيا من أن تتجر إلى حرب يتسبب بها اليمنيون مدعومين من الطليان ضد السعوديين (2)، مما سيضطر بريطانيا أن تكون آنذاك في موقع الحماية.

ومن جهة ثانية، يجيء عدم رضا ابن سعود على السياسة البريطانية حيال فلسطين، والتحرك الناشط لمساعديه، من امثال يوسف ياسين في بغداد ودمشق وعلى نحو غير مطمئن، ليعني بوضوح أن السياسة البريطانية هي موضع نقد محلي واسع، في مقابل التأييد المتصاعد لالمانيا النازية.

وفي الوقت الذي كان فيه استراتيجيو الدفاع الأمبراطوري البريطاني يتداولون في خطورة الوضع الذي قد ينشأ إذا تحول ابن سعود ضد بريطانيا، كان هتلر يناقش مع أعلى مسؤولية العسكريين ومستشاريه للشؤون الخارجية في التوقعات المتعلقة بالامبراطورية الايطالية. وفي اجتماع سري بتاريخ 5 تشرين الثاني 1937، نقل كولونيل هوسباخ مقتطفات منه لم تنشر الا بعد سنوات والتي عرفت بوثائق هوسباخ (3) يتحدث هتلر عن استشرافاته حتى سنة 1945. وفي ما خص الامبراطورية البريطانية "احدى العدوتين الاكثر كرهاً " (والاخرى فرنسا) يقول "هناك علامات على تصدع في الامبراطورية البريطانية ايرلندا، الهند، خطر القوة اليابانية في الشرق الاقصى، الايطاليون في البحر الابيض المتوسط. وعلى المدى الطويل لن تستطيع الامبراطورية الحفاظ على مركزها".

كانت وزارة الخارجية البريطانية تدرك ضرورة التنبه للاتصالات التي كانت تتطور بين ابن سعود والالمان، وبخاصة في ما يتعلق بمسائل أخرى غير فلسطين التي كانت مجرد غبار يخفي مسائل أخرى. فالبحث في الحدود السعودية مع ابو طبي وقطر تجاوز، كما رأينا، مرحلة تبادل الرسائل والخرائط بين الرسميين، فلقد كلف فيصل، ابن الملك شخصياً بالمسألة.وهكذا وجدت الخارجية نفسها، قبيل الحرب العالمية الثانية، في الوضع نفسه الذي كانت فيه قبل الحرب العالمية الاولى، ولكن على نحو معكوس. فخلال سنتي 1913 / 1914، كان الهم الاكبر للدبلوماسين الحفاظ على موقع ابن سعود كموظف تركي، "أو لاشيء آخر"، كيما يحتفظ بالعلاقة مع اسطنبول، أما الآن، فان الاولوية هي للمحافظة على العلاقة بابن سعود ولو كان ذلك على حساب القوى الاقل اهمية مثل ابو ظبي، قطر، ومكتب الهند،

وبين سنتي 1937 و1939، شهدت لندن مداولات معمقة بين مكتب الهند (الذي كان ما يزال مسؤولاً عن المناطق الخليجية غير المشتعلة) ووزارة الخارجية، في محاولة لحل الخلاف حول سياسة الرياض وعلى نحو يرضي ابن سعود. كانت المداولات قاسية وحساسة حول المسائل المكونة لموضوع النقاش، إلى حد أنه، في آذار 1938، أي بينما كان النفط يسيل في بئر الدمام7، اقدمت الخارجية على حذف مسألة خور العديد(4)، على الجانب الشرقي لشبه الجزيرة القطرية، من مجرى العمليات لصالح الموضوع الأساسي.

وعلى قاعدة هذا التوجه، قدم الممثلون البريطانيون في العربية السعودية احترامهم إلى بلاط ابن سعود، فزاره اثنان من هؤلاء قبل وقت قصير من الزيارة الملكية، وكان لاحدهما أن يكتب لاحقاً ما اعتبر ثاني اهم عمل في المذكرات الدبلوماسية(5). وجزء كبير منه انما يعود إلى تجربته الطويلة في شؤون شبه الجزيرة العربية، اولاً في الحجاز في أثناء حصار ابن سعود للهاشميين، ثانياً كمفوض بريطاني معتمد لدى بلاط ابن سعود. وكان ريدر بلاردreader bullard، بالاضافة إلى ذلك، يتقن العربية بطلاقة تامة. ولعله من حسن الطالع للقارئ أن لندن كانت حريصة أن ترسل إلى ابن سعود رجالاً يتميزون لا بمعرفة اللغة العربية وشؤون الجزيرة فقط، وانما يستطيعون الكتابة ايضاً فغرافتي سميث graff ty smith، كان أيضاً في الحجاز في العشرينات وهو تحديداً من كتب اعظم كتاب ممتع على الاطلاق في ميدان المذكرات الدبلوماسية (6).

كان بلارد مترجماً عندما رافق رئيسه، راندل، في الخارجية لزيارة ابن سعود في الرياض. وراندل، هو نفسه الذي نصح حافظ وهبه، كما رأينا، في مسألة اسم المملكة، كان يتبع مدى تأثير الخلاف على الحدود الشرقية للمملكة على العلاقات الانجليزية السعودية.وتلقى راندل في سياق مفاوضاته، الا انه استنتج، مع ذلك، أن الملك "ربما اعتبرنا، آنياً على الاقل، الأقل خطراً بين القوى الاجنبية التي يتوجب عليه التفاوض معها". كان هناك الكثير، اذاً مما يتوجب متابعته أو انجازهن وهكذا بقي راندل على صلة دائمة بالملك.

ترك ابن سعود تأثيراً شخصياً واضحاً على بلارد ودبلوماسيين آخرين: واتيح لبلارد أن يعقد مقارنات مهمة بين حسين بن علي، من جهة، الذي كان لهم معه مباحثات في ادق الظروف التي مر بها الحجاز، وابن سعود سيد الجزيرة العربية الجديد(8) من جهة ثانية: "هو لم يعش في عاصمة، مثلما عاش حسين في اسطنبول الا أن طباعه تسمح بالتكيف مع كل الاوضاع،اما في فن الحديث فان حسين هو دونه بمسافات. وربما كانا متساويين في علوم الدين التي تحتل حيزاً كبيراً من قراءاته واحاديثه".

وكان للدبلوماسي كذلك تقييم معرفة الملك بالشؤون الدولية:

"وميزة ابن سعود الاكثر وقعاً هي حكمته السياسية، وقد نمت هذه الميزة مع تنامي مسؤولياته حتى باتت في مستوى كل وضع محتمل أو مستجد وأداؤه ينم عن معرفة بالشؤون الدولية، تزيد عما لدى الكثير من المثقفين الاوروبيين(9)".

وبعض السبب في هذا الرصيد الضخم من المعلومات عن مسرح السياسة الدولية إنما يعود، كما لاحظ بلارد، إلى تخصيصه قسماً من قصره كانت كل مهمته رصد نشرات الاخبار في الاذاعات الاوروبية، ثم ترجمتها وقراءتها على الملك بعد صلاة العشاء.

وأتيحت لبلارد الفرصة كذلك للاطلاع على قصر الملك الجديد، المربع الذي بني ليستوعب عائلة الملك التي تزداد حجماً. فقصر المسماك الذي انتزعه ابن سعود سنة 1902 أصبح، منذ وقت طويل، غير ملائم، لكن الملك لم يستطع الانتقال إلى قصر جديد حتى أواخر الثلاثينات. واشترك، هو شخصياً، في تصميم المقر الجديد، إلا أن خبرته المعمارية لم تكن في مستوى خبرته السياسية أو في تعبير بلارد: "لقد كان الملك أقل نجاحاً كمعماري منه كرجل دولة(10).

وجد بلارد، كسواه، بساطة الملك ووضحوه أمراً استثنائياً وساحراً. ولاحظ أنه حتى في المآدب الأكثر فخامة كان لا ينفك عن شرب حليب النوق، (11)، يسكبه مرافق مسلح من إبريق فخاري جميل مزخرف بالابيض والبنفسجي، وتكاد تبرز شقوقه من كثرة الاستعمال.

وفي أثناء مأدبة على الطراز الغربي، اقامها على شرف بلارد، لم يستطع الملك أن يتحمل وجود هذه الكمية الضخمة من ادوات الطعام الغربية أمامه، فإذا به يجمعها كلها ثم يدفع بها إلى مساعد بلارد قائلاً: "أنا لا أفهم هذه الأشياء".

وفي آب 1938، كان بلارد في ضيافة ابن سعود من جديد، وذلك حينما سافر إلى الرياض للاحتفال بافتتاح القسم العربي في هيئة الاذاعة البريطانية(BBC). وتصدر اللقاء خبر اعدام البريطانيين لشاب فلسطيني اتهم بحيازة اسلحة. وفي اليوم التالي كانت الدموع في عيني ابن سعود(3)، كما يرويه بلارد. أن لم تكن للسياسة الصهيونية فتلكن للسياسة البريطانية التي على العرب أن يحيوا ليروها".

ويعترف بلارد بانه لم يكن لديه ما يقوله للملك، غير انه كانت لديه كل الاسباب كي لا يكون مطمئناً منذ تبين أن السياسة البريطانية حيال فلسطين لا تسعد غير أعداء بريطانيا، أو اعدائها المحتملين . ثم كان لبلارد رحلة ثلاثة أيام، من جديد، من جدة إلى الرياض لزيارة ابن سعود في تشرين الثاني 1938، استغرقت إقامة بلارد في الرياض ثلاثة اسابيع، وليكتب من بعدها ملاحظاته حول ابن سعود التي تستحق ايراد مقاطع منها، على طولها، فهي تلي آراء فيلبي هنا أو تقابلها. وللفترة عينها. فقد تلقى ابن سعود عائداته المالية الاولى وفق الاتفاقيات الموقعة، وكان العمل قد اكتمل كذلك لتمكين العربية السعودية من شحن نفطها من رأس تنورة. كانت المعطيات كلها تشير إلى أن البلاد قد تجاوزت المصاعب الناتجة عن الانكماش العالمي، وان نهايات سعيدة تلوح في الافق فتضع حداً لأزمنة طويلة من الحرمان. لكن فيلبي كان عاجزاً عن أن يرى شيئاً من ذلك(13).

كان فيلبي، وفق ما يسجله بلارد، في حالة من التشاؤم العنيف حول وضع ابن سعود، والذي لم يفعل شيئاً طوال الصيف، حسب فيلبي، عدا بناء قصره الجديد، يتخبط في شؤون اسرته وينام في

مجلسه تاركاً حكم البلاد، عدا شؤون البدو، للشيخ عبد الله سليمان وزير المال... وهو يفكر الآن هل حقبة الفوضى التي ستعقب موت ابن سعود ستبدأ في حياته.
وكان على بلارد، كدبلوماسي حذر، أن يأخذ الملاحظات في الاعتبار، خصوصاً إذا جاءت ممن قضى وقتاً طويلاً قريباً من ابن سعود. إلا انه توصل إلى أن حكم فيلبي المتشائم يكتنفه سببان: فقد رفض الملك، كما يرى بلارد، السماح لفيلبي أن يستعمله كعصا لجلد الحكومة البريطانية في موضوع فلسطين (وهو خطأ لا يغتفر برأي فيلبي إذ أن ابن سعود قد أضاع فرصة قيادة العالم العربي التي ذهبت الآن إلى العراق). والسبب الثاني للشك في مصداقية حكم فيلبي سبب شخصي. ومرده إلى غرق فيلبي في ديون كبيرة لشركة فورد بعدما استورد لحساب الحكومة السعودية بقيمة 100000 جنيه ما تزال ديناً لم يدفع.
ثم يصدر بلارد حكمه على النقاط التي اثارها فيلبي، فيلاحظ: أن الملك يبدو بالتأكيد أكبر من سن السادسة والخمسين، الا انه لا يجلس في كرسي للمقعدين. هو يميل قليلاً حينما يمشي، لكنه لم يلحظ أي اشارة إلى انه نام فلعلاً فيما كان يتباحث مع بلارد. وبالنسبة لوضعه الصحي فمن المعروف انه يحق بالابر ولكن لمجرد مقاومة خطر العجز".
ويستنتج بلارد أن الملك هو، اجمالاً فيوضع حسن للغاية لشخص عاش الحياة الدراماتيكية التي عاشها، وكل ما في الأمر أن الملك يشعر انه "ربما كان سعود بدأ عملياً بتفويض بعض اهم مهامه إلى اهل الثقة، منها، على سبيل المثال، تكليف ابنه سعود أن ينوب عنه في استقبالات عيد الفطر.
ويلاحظ بلا رد أمثلة اخرى، كذلك لعملية تخفيف الأعمال التي كان يتولاها ابن سعود.ففي نيسان أعطى ابن سعود توجيهاته بألاّ تصل مراجعات أصحاب الحاجة إليه الا إذا اخفقت اتصالاتهم بموظفي الحكومة وبنائبيه سعود وفيصل، أو بواحد منهما. ويقود هذا الى الاعتقاد انه ربما كان هذا هو سبب ما قيل عن تراخي قوة حضور ابن سعود في مجلسه، أو ما بدا مظهر عجز بعد فترة طويلة اعتاد أن يكون فيها متنبهاً متأهباً على الدوام، لاتخاذ القرارات أو للعمل.
بعد زيارة بلارد للملك، يمضي في وصف نشاطات الممثل الألماني الجديد في بغداد غروبا GRObba، الذي يلح في صنع الصداقات وكسب النفوذ، وبنتيجة اتصالات يوسف ياسين في بغداد سنة 1937، عندما كان يفاوض كسباً لمساعدة الالمان في موضوع فلسطين، لبى غروبا الدعوة لزيارة ابن سعود في جدة في كانون الثاني 1939.
استقبل ابن سعود غروبا غير مرة، بين كانون الثاني وشباط 1939، ونقل الممثل الالماني إلى برلين(14) ما حكم بأنه كره ابن سعود الداخلي للبريطانيين. وبنتيجة تقارير غروبا، جرى نقاش في

برلين حول حسنات سياسة المانية اكثر مبادرة في العالم العربي وخصوصاً تجاه ابن سعود تشير الوثائق الألمانية(15) إلى رغبة ابن سعود بتمرير أسلحة المانية إلى فلسطين، وانه يأمل بازاحة عبد الله عن عرش شرق الأردن وإحلال واحد من ابنائه محله. ومع ذلك، فقد فاز في برلين جناح عدم التدخل المباشر وأكتفي، بدلاً من ذلك، بالوصول إلى اتفاق يجري بموجبه استيراد 4000 بندقية ألمانية وذخائرها، كما اتفق على بناء مصنع اسلحة قرب الرياض.

ظلت فلسطين موضوع الساعة لابن سعود بعد انتهاء محادثاته مع غروبا، إذ دعا البريطانيون إلى عقد مؤتمر في لندن، في شباط وآذار 1929، لكل الدول العربية لبحث مستقبل فلسطين مع ممثلين صهاينة. ارسل الملك الأمير فيصل لتمثيل العربية السعودية في المؤتمر، الذي لم يصل إلى أي نتيجة عدا السلبي منها والذي تمثل في رفض فكرة التقسيم. وكانت المرة الاولى لمثل هذه اللقاءات التي ترفض الوفود العربية أن تجلس مع الصهاينة.وهكذا كان على الرسميين البريطانيين الحاضرين أن يمارسوا دبلوماسية مكوكية بين الطرفين.

وفي آيار 1939، كان الحدث في رأس تنورة وبمشاركة ابن سعود في الاحتفال الذي أقيم بمناسبة بدء تحميل أول شحنة من النفط السعودي للتصدير.كان في وسع مسؤولي كاسوك(Casoc)، الشركة الجديدة التي حلت محل سوكال والسابقة الأرامكوا، أن يطلعوا الملك كيف أن الموقع البدائي الذي اختاره تويتشل قبل بضع سنوات قد غدا الآن ميناء حديثاً لشحن النفط. وفي اللحظة التي كان فيها الملك يفتح رمزياً صباب التحميل معلناً بدء الشحن، فقد كان يفتتح في الحقيقة الباب نحو مستقبل مشرق نضمن الوفر والازدهار للعربية السعودية، ولم يفت كرم ابن سعود(16) الأسطوري هذه المناسبة ايضاً، فلم يكتف بتوزيع 500000 ريال على فقراء الظهران، بل وزع مبلغاً مشابها على فقراء المنامة، بعدما وصلها في موكب بحري ملكي.

تسلم ابن سعود الـ 200000 جنيه استرليني لقاء الصادرات النفطية للعام 1938، وبدا أن الدخول في اسواق العالم هو المؤشر لعهد لا حد له من الازدهار، الا أن هتلر، وفي الأول من أيلول 1939، كان قد بدأ غزو بولندا، ولتبدأ بالتالي صفحة أخرى مختلفة.

لم تصل الحرب إلى شبه الجزيرة على الفور،لكن بدا واضحاً مع العام 1940 أن العربية السعودية لن تتمكن من الانتفاع بمصدر ثروتها إلى أن تنتهي الحرب. اما بالنسبة لمجريات الحرب، فقد كان واضحاً أن البلاد ستبقى في حالة ترقب(17)، وأنها ستضطر للاعتماد على الحد الادنى من الامكانات المتوافرة للبقاء.

لكن المشاكل التي كانت في طريقها إلى ابن سعود لم تكن مشاكل مالية فحسب، وانما كانت مشكلة البقاء احياء كذلك، إذ كان على البلاد أن تعاني سنة 1940 من الجفاف والمجاعة.

وكسواها من بلدان شبه الجزيرة، كان على العربية السعودية أن تخلي جثث الاعداد الضخمة من الذين قضوا جوعاً. وكان على امدادات الطعام أن تجلب من الخارج فوجد المكتشف برترام توماس، على سبيل المثال، وجد نفسه مسؤولاً في المشيخات الخليجية عن امدادات الطعام والمعنويات MORAIe. وفي السعودية كان جيرالد دي غوري، الذي كان قد زار ابن سعود سنة 1935، كان صلة الوصل بين ابن سعود والحكومة البريطانية.

اما عبد الله فيلبي، الذي كان بصحبة الأمير فيصل في لندن مطلع العام 1939، فيبدو أن لندن قد وجدت له عملاً كضابط اتصال واستخبارات الا أن ماضيه كان على الدوام يشهد ضده.

وبعيد اندلاع الحرب، في ايلول 1939.

عاد فليبي إلى الرياض بناء لطلب الملك، بعد إجازة من جهة، وبمحاولة فاشلة لدخول البرلمان من جهة ثانية، تحت شعارات السلم وبدعم من اتحاد مجموعات السلام.

ومع عودة فيلبي، وجد ابن سعود نفسه في حوار طرشان مع نديمه البريطاني الوحيد. فقد كان فيلبي مقتنعاً أن بريطانيا ستخسر الحرب لا محاولة، لأسباب احدها على الاقل أن خسارتها في السفن سوف تقود البلاد إلى مجاعة. وكان ابن سعود ملحاحاً ايضاً في انه يجب على البريطانيين رد الضربة للالمان. وبعدما تطورت الحرب في مطلع 1940، يصرخ ابن سعود في وجه فيلبي: ما اصابكم انتم الانجليز؟ يجب أن تضربوا، الآن(18).

لم تكن المناسبة الوحيدة التي يظهر فيها ابن سعود دعمه بجهود الحرب البريطانية. ففي الفترة التي عانت منها بريطانيا، على غير مسرح من مسارح العمليات، هزائم كبيرة، حتى نهاية 1942 تقريباً، كان مزاج ابن سعود، وحسب رجال بلاطه وحاشيته(19)، يتغير تماماً تبعاً للأنباء الواردة من جبهات القتال، جيدة أو سيئة.

تبدو علاقة فيلبي بابن سعود، في فترة 1939 _ 1940، على كثير من الحساسية. الا انه يستحيل بغياب الوثائق، تقديم وصف دقيق وموضوعي لها، وما ارتبط منها، بمسألة فلسطين خصوصاً(20).

وعناوين هذه القصة معروفة تماماً، وذلك حين قام فيلبي بإجراء اتصالات بزعماء صهاينة في لندن بهدف الوصل إلى حل للمسألة الفلسطينية يشترك فيه ابن سعود نفسه. بدأت الاتصالات باجتماع عقد في منزله بلندن، في شباط 1939، حضرة مستشار الملك للشؤون الخارجية فؤاد حمزة(الذي كان يبحث قبل ذلك مع الالمان صيف 1938، في كيفية امرار السلاح إلي فلسطين(21) وفيلبي، من جانب، وحاييم وايزمان ودافيد بن غوريون عن الجانب الصهيوني.

لم يعقد أي اجتماع آخر على الإطلاق بعد ذلك الاجتماع اليتيم الوحيد في بيت فيلبي نفسه، وقبل عودته إلى الرياض، عقد اجتماعاً مع موشي شرتوك وحاييم وايزمان، اعد له المؤرخ البريطاني ل. ب نامبر. ابدى فيلبي، في هذا الاجتماع، وجهة نظر مفادها انه ربما امكن إقناع العربية السعودية بتأييد موقف بريطانيا إذا امكن تزويد ابن سعود بالمال والسلاح. ثم اقترح خطة من عناوينها انه إذا امكن اعطاء ابن سعود 20 مليون جنيه، فإنه يمكن السماح بحرية الهجرة اليهودية إلى القسم الغربي من فلسطين، بحيث يمكن لسكان هذا القسم أن يستوعبوا في العربية السعودية وبلدان عربية أخرى. وبين الحسنات الأخرى لهذه الخطة: ظهور ابن سعود كأحد ابرز الزعماء العرب الساعين إلى الوحدة العربية. وعد وايزمان بعرض الخطة في أثناء اتصالاته في الولايات المتحدة، كما وعد فيلبي بنقل الخطة إلى ابن سعود.

بحث فيلبي فكرته مع ابن سعود في كانون الثاني 1940، وبحسب فيلبي، فقد رد الملك" انه سيعطيني جوابه المحدد في الوقت المناسب" واخبر فيلبي زوجته "أن الخطة قبلت(22)"، الا ان ابن سعود طالبه، والرواية لفيلبي، الا يبحث المسألة مع احد. وتبعاً لقناعته هذه مضى فيلبي، وهو أمر معروف ايضاً، ليبحث مع يوسف ياسين.

كان ابن سعود، بحسب رواية فيلبين يميل إلى أن يرى في الخطة اقتراحاً معقولاً. الا أن ما يعنيه، والكلام لفيلبي في رسالته إلى وايزمان في نيسان 1940، انما هو: "الطريقة التي يمكن تخريجها بها من دون اثارة موجة من الغضب بين عناصر عربية محددة".

في آيار 1940، اجتاحت الجيوش الألمانية "البلدان المنخفضة" وفي 14 حزيران احتلت باريس، وفرنسا كانت قد هزمت، بينما باتت بريطانيا تواجه الآن خطر الاجتياح الالماني من دون أي حليف لها اوروبا، والولايات المتحدة في موقع الحياد. استمر فيلبي مناهضاً لموقف بريطانيا ويبدي المزيد من القناعة أن بريطانيا ستخسر الحرب. وبلغت حدة موقفه مستوى ابلغ ابن سعود معه المفوض البريطاني المقيم ستون هيور بيرد بأن فيلبي مختل عقلياً(23). فما كان منه الان اتخذ قراراً بمنع فيلبي، تحت أي ظرف كان، من دخول مقر البعثة البريطانية.

ومع ذلك، فقد اعطى ابن سعود، في هذه الفترة، فيلبي بيتاً في الرياض، وربما كما قيل، لإبقائه تحت المراقبة. اما الخطوة التالية في علاقة الملك بفيلبي، فكانت حين اوقف فيلبي، في كراتشي بينما هو في طريقه إلى الولايات المتحدة حيث كان من المقرر أن يلقي مجموعة خطب ومحاضرات.

ويروي د. غرافتي سميث، الذي خلف ستونهيور بيرد، والذي قدم اوراق اعتماده لابن سعود سنة 1945، ما حدث على الشكل التالي: "حين كان فيلبي على اهبة الاستعداد للسفر إلى الولايات

المتحدة لإلقاء محاضرات، وردت إشارة من مصدر ثقة رفيع تنصح بتفتيش حقائب فيلبي، وجرى بعد ذلك توقيفه"(24).
وكان ابن سعود قد قال لستونهيور بيرد: إنه اصدر اوامره باعتقال فيلبي إذا ضبط في حديث ضد البريطانيين، وقد صارح فيلبي نفسه بذلك، لانه يكره "طول اللسان"(25).
لم تصرف تطورات الحرب، ولا متابعة ابن سعود لها متابعته للسياسات الدولية، لم تصرف اهتمامه عن شؤونه الداخلية، فما زال، بحسب تقرير البعثة البريطانية يمارس دوره كاملاً كزعيم قبلي(26).
ويصف تقرير البعثة لذلك الشهر "الاجتماع السنوي لممثلي القبائل الذي عقده الملك بالرياض في نهاية تموز ..والذي ضم شمر، وحرب، ومطير، وعتيبة، وقحطان، والرشايدة، وعنيزة، ونجد، والعجمان، ومرة، ودواسر، وسبيعي، وبني خالد، وبني حجير والعوازم". وتلا ذلك اجتماع آخر للقبائل عينها في 14 آب استقبل فيه الملك ممثليها، وحضره العلماء، حيث قدم الملك خطبة دينية طويلة تناولت مسائل دينية.
اتخذت دورة اتصالات فيلبي بالصهاينة بعضاً من الوقت قبل أن تظهر، وسيشترك فيها ونستون تشرشل، الذي اعتقد، كما يبدو، انه بالامكان إقناع ابن سعود أن في وسعه أن يصبح" رئيس رؤساء" الشرق الاوسط، مع التعاطف والدعم الصهيوني والبريطاني. واللافت اختيار تشرشل لهذا المصطلح "رئيس رؤساء (BOSS OF BOSSES) من جعبة عالم زعماء المافيا، الأمر الذي لا يمكن رده إلا مع بعض التليين، إلى المعجم الذي عرفته نيويورك في الثلاثينات، وحيث كان تشرشل قد اقام فيها لفترة آنذاك.وقبل زيارة وايزمان للولايات المتحدة بحث الخطة المقترحة في 10 داونغ ستريت بتاريخ 11 آذار من العام 1942(27).
وينقل وايزمان عن تشرشل قوله: "دع ذلك سراً، ولكن في وسعك بحث الأمر مع روزفلت.... فما من شيء يعصى علينا، إذا صممنا عليه".
ثم يمضي وايزمان فيروي محادثاته في واشنطن مع الممثل الشخصي لروزفلت، هوسكنز، وإرسال هوسكنز إلى ابن سعود لجس النبض حال الخطة المقترحة، ثم كيف وجد الجو مختلفاً تماماً(28).
وذلك بعيد عودة هوسكنز من الرياض. فقد افاد هوسكنز أن ابن سعود قد تناول وايزمان بكلام عنيف لمحاولته رشوته بـ 20 مليون جنيه لبيع فلسطين لليهود، ويعني هوسكنز ابن سعود قد اقسم بانه لن يسمح لفيلبي أن يضع قدمه في البلاد مرة أخرى .
اما الحقيقة في ذلك كله، فيصعب العثور عليها كاملة. فاستناداً إلى الروايات المختلفة للذين اشتركوا في القضية، يمكن القول: أن فيلبي لم يكن مفوضاً من قبل ابن سعود، كما أن رواية وايزمان غير دقيقة بخصوص التواريخ التي يوردها، حيث يزعم انه سمع للمرة الاولى بأفكار فيلبي،

تفصيلاً، حين خرج فيلبي من معتقله في بريطانيا. اما طريقة استيعاب الزعماء البريطانيين والاميركيين للمسألة فبدت سطحية وقاصرة.
والحقيقة الثابتة الوحيدة في المسألة، التي تؤكدها الوثائق، هي رد ابن سعود على عرض هوسنكز والذي اعتبره بمثابة محاولة رشوة مهينة(29).
ولا يرد تحريم ابن سعود دخول فيلبي البلاد الا في رواية وايزمان فقط، في حين أن ابن سعود، وحالما انتهت الحرب وبات فيلبي حراً في التنقل، ارسل طائرة لتنقله من القاهرة إلى العربية السعودية. ولعله من الأهمية بمكان العودة إلى الزركلي حيث يوضح في هذه المسألة حجم الخطط والتوقعات التي بناها الاميركيون تجاه ابن سعود. ففي رسالة ابن سعود، يسأله الرئيس الاميركي هل يوافق على الاجتماع بوايزمان في واشنطن، أو في أي مكان آخر، للبحث في تسوية للمشكلة الفلسطينية تكون مقبولة لدى اليهود والعرب في آن، واذا تعذر عقد هذا الاجتماع، فهل يوافق الملك على لقاء بين ممثليه وممثلين لوايزمان في مكان ما، غير الرياض، كذلك كان هوسكنز واضحاً في اشارته إلى أن تشرشل وإيدن كانا على علم بالمسعى الذي قام به هوسكنز.
وينقل الزركلي رد الملك الذي تضمن قوله: أن حقوق العرب في هذه المسألة حقوق واضحة كضوء النهار, وانه من غير الوارد إطلاقاً إجراء أي اتصالات مع وايزمان لأننا "لن نكون بمأمن من غدر اليهود وكان هناك، أكثر من ذلك كره خاص بين وايزمان وابن سعود، حيث ينقل قول وايزمان: أن ابن سعود "هو عدو لديني ووطني".
تتزامن قصة فيلبي _ وايزمان، تماماً، مع الفترة التي باتت الولايات المتحدة حاضرة فيها بقوة في شؤون العربية السعودية، وكجزء من الوضع السياسي الأميركي المستجد، فمسألة إمدادات النفط غدت طاغية على التفكير الاميركي، منذ تورطت الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية، بعد الهجوم على بيرل هاربور.
كان على ابن سعود، قبل دخول الولايات المتحدة الحرب، أن يستخلص النتائج السياسية التي تتناسب ومستجدات الشؤون العربية، وبخاصة ما ارتبط منها بتحرك عناصر من الجيش العراقي، بدعم من المانيا النازية، ضد السلطة الهاشمية، ثم طلبها تأييد ابن سعود، لكن ابن سعود، ورغم أن أنباء الحرب على الجبهة البريطانية كانت مأساوية،ورغم أن الذين جرى طردهم من السلطة هم اعداؤه الهاشميون، فقد رفض ابن سعود منح هؤلاء أي مساعدة أو تأييد.
وينقل مسؤول بريطاني عنه قوله لموفد عراقي أن عليه المغادرة دون إبطاء، ثم ختم بقوله: "الويل لنا، نحن العرب، إذا ربح هتلر، "(30) فانجلترا، يضيف، لم ترغب يوماً، على الأقل، في انتزاع اراضي العرب من اصحابها.

على الرغم مما تقدم، نستطيع أن نقول: في البدء كانت الزراعة. فهي التي جلبت الاميركيين رسمياً إلى المملكة(31). فتويتشل ، المهندس الاميركي الذي عرفه الملك سنة 1931 حين اقترحه شارلز كراين لمسح موارد البلاد الطبيعية والمعدنية، هو الآن في المملكة ثانية بناء لدعوة ابن سعود. فبينما كان فيلبي محتجزاً في بريطانيا بناء لرغبة حكومة جلالته، طلب من تويتشل مسح امكانية انشاء طريق في منطقة عسير. ثم طلب منه الملك، ذات يوم، أن يسعى إلى تفحص موارد نجد المائية والزراعية، وسأله: هل بالامكان الطلب من شركة أو شركات اميركية انجاز هذه المهمة؟

لم يستطع تويتشل العثور على شركات تجارية ترغب في القيام بالمشروع، لكنه ابرق إلى الملك يسأله: هل يوافق على قيام بعثة زراعية اميركية رسمية بتنفيذ المشروع. وافق الملك وطارت البعثة من واشنطن بتاريخ19 آذار 1942. ثم تركت البعثة البحرين، بعد تأخر في القاهرة، بتاريخ 9 آيار، لتصل إلى بير رمه في العربية وولي العهد والامير فيصل ومستشاروه للترحيب بوصول اول دبلوماسي اميركي إلى المملكة، فقد قدم مع اختصاصيي الزراعة أول مفوض اميركي، الكسندر كيرك، مع مساعدة رايموند هير، الذي قضى سنوات عدة أخرى في المملكة، وذلك بهدف افتتاح أول بعثة دبلوماسية للولايات المتحدة في المملكة. بعد الترحيب والغداء، شاهدت البعثة افلاماً اعدتها البعثة البريطانية، ثم غادرت في رحلة استغرقت ثلاث ساعات إلى الرياض، حيث كانت تنتظرهم وليمة نجدية. دعى الملك الجميع إلى قصر المربع، حيث اجلس تويتشل، كما يروي هو، إلى رأس طاولة يشرف منها على 32 ضيفاً(32).

وغادر بعدها اختصاصيو الزراعة إلى الخرج حيث كان مشروع عبد الله سليمان قد تمكن، بمساعدة شركة النفط، من إصلاح الأرض إلى حد انها باتت قادرة على تزويد الرياض بمعظم ما تحتاجه من الخضار. ويبدو أن الاميركيين قد فعلوا خيراً بتركيزهم على هذا القطاع، ونالوا، تبعاً لذلك، وبتعبير تويتشل المتواضع، ثناء الملك.

وفي العام التالي، كانت مسائل أكثر جدية تنتظر. فالتورط الاميركي الكامل في الحرب على جبهتي الباسفيكي والاطلنطي كان يعني أن احتياط النفط الاميركي سيتآكل بنسبة 3% سنوياً. وفي حدود شباط 1943، جرى لفت الرئيس إلى أن نفط العربية السعودية إذا احسن تطويره، سيكون مصدراً بديلاً رئيسياً.

وفي 18 شباط، أصدر الرئيس بياناً أعلن فيه أن امن العربية السعودية هو "أمر حيوي لدفاع الولايات المتحدة(33)، وباتت المملكة، بالتالي، في مدى قانون المساعدات الاميركي.

وفي آب 1943، استقبل ابن سعود مبعوث الرئيس الخاص، الكولونيل هوسكنز، الذي أتيح له أن يتداول مع الملك لبضع ساعات يومياً وعلى مدى اسبوع كامل. كذلك كانت هناك حركة للموفدين البريطانيين، فوصل ستانلي جوردان إلى مقر البعثة البريطانية في جدة. ولأنه يعرف جدة في العشرينات ومع امتداح ابن سعود لتعيينه، بعيد وصوله، بدا جوردان في وضع مثالي لاقامة علاقة جيدة بابن سعود، دون أن يغيب عن باله أن العلاقة الانجليزية _ الاميركية بخصوص ابن سعود كانت قد بلغت أدنى مستوى لها.

وكشخص صديق مجرب، كان في وسع جوردان أن يقول كل ما عنده وان لا يخفي سراً، بخصوص الانهيار المالي، عن السعوديين الذين باتوا يتلقون مساعدات بريطانية واميركية، فعند نهاية العام 1943، كانت المساعدة البريطانية للعربية السعودية قد بلغت ما يزيد على 8 ملايين جنيه، لكن وايتهول كان صريحاً إلى الملك افكاراً واقتراحات حول ضرورة ادخال التنظيم إلى مالية البلاد وفي غير اتجاه. وحين اقيل نجيب صالحه، أحد مستشاريه شاع أن الملك انما يعمل بنصح المفوض البريطاني. ومع تداول الاقتراح الرامي إلى انشاء مصرف بريطاني في المملكة غدا مفهوماً أن مبادرات أكثر إقداماً وتصميماً يجب اتخاذها، اذا ما اريد حقاً إبعاد النفوذ الاميركي. لكن المهمة باتت اكثر صعوبة بكثير مع وصول مفوض اميركي جديد إلى البعثة الاميركية في جدة، هو الكولونيل وليم إدي William Addy. كان إدي، المولود في صيدا لبنان، يتكلم عربية ممتازة كما انه خارج للتو من رئاسة مكتب شمال افريقيا في الـ SIA لاحقاً)، تحرك إدي بسرعة لانقاذ الموقف، وجرى تقديم احتجاج رسمي إلى البريطانيين حول النشاطات المعادية لاميركا التي يقوم بها جوردان. ورغم أن البريطانيين حول النشاطات المعادية لاميركا التي يقوم بها جوردان. ورغم أن البريطانيين كانوا ميالين لاتخاذ موقف متشدد من نشاطات جوردان، الا أن الموقف الاكثر تشدداً كان من ابن سعود نفسه الذي أسر به إلى إدي "جوردان معاد لنا وللولايات المتحدة. لقد توهم لنفسه من القوة بما يسمح له بتخريب علاقاتنا الجيدة وبإهانة بلدي(35)".

اسقط في يد الرجل المسكين، بعد العنف في رد ابن سعود، فادعى المرض، وكان عليه أن يرجع. واستبدل جوردان بغرافتي سميث والذي أمكن له أن يقدم وصفاً ممتازاً لابن سعود حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، نظراً لعربيته الممتازة من جهة، ولخبرته الطويلة في شؤون شبه الجزيرة العربية. كما كانت له ميزات نادرة أخرى، كالتواضع والقدرة على انجاز خدمات، أو إقامة علاقات ربما لا تظهر نتائجها إلى العلن مباشرة، ويقدم لنا عينة منها وذلك حين يقول: "استدعيت طبيب اسناني من القاهرة إلى الرياض لانتزاع بضعة أسنان ملكية، وليعود بعد ثلاثة اسابيع إلى القاهرة محملا ذهباً(36)".

بقي غرافتي سميث سنتين أخريين في العربية السعودية، وكتب عن المملكة ومليكها بكثير من التعاطف والود. إلا انه، وفي طريقه إلى اجتماعه الأول بابن سعود، لم يكن يتوقع أن يجد ما هو اكثر دراماتيكية مما حدث. ففي طريقه في شباط 1945 إلى العربية السعودية، عبر القاهرة، كان ابن سعود في طريقه إلى السويس على ظهر مدمرة أميركية للقاء الرئيس روزفلت، ثم ونستون تشرشل.

الحياة العائلية

في هذه الفترة تزوج ابن سعود ثلاث زوجات ولدن له أبناء أحياء، والثلاث من أصل يمني، وهن:

1 _ سعيده، Saida، ولدت له هذلول.

2 _ بركه، Baraka، ولدت له مقرن.

3 _ فطايمة Ftaima، ولدت له حمود، آخر ابن حي لابن سعود.

كما تروي سجلات هذه الفترة ان ابن سعود قد أخذ زوجة أخرى من بين الرشيديين، وأنه لعب رقصة السيف بكل مهارة في الاحتفالات المصاحبة(37) ووفق ما نعرف، فقد كانت تلك الزوجة الاخيرة لابن سعود ولا يجد لها ليز Lees غير اسم المجهولة(Un Known) في: آل سعود الأسرة الحاكمة في العربية السعودية، ص 36 كما ولد لابن سعود في هذه الفترة أبناء جدد وهم:

1 _ عبد الماجد، ولد سنة 1940

2 _ سطام، ولد سنة 1940

3 _ أحمد، ولد سنة 1940 شقيق الملك فهد.

4 _ ممدوح، ولد سنة 1941.

5 _ هذلول، ولد سنة 1941.

6 _ مشهور، ولد سنة 1942.

7 _ عبد السلام، ولد بين سنتي 1942 _ 1944.

8 _ مقرن، ولد سنة 1943.

اما الاحفاد _ الصبيان الذين ولدوا في هذه الفترة، وكذا الاحفاد _ البنات، فكثر ولم يحصوا في هذا الباب.

الفصل العاشر

ابن سعود على المسرح الدولي

1945 _ 1951

انا سعيد لأن معظم رجالي من سوريا

ابن سعود لوفد سوري، سنة 1946، من الرزمكي ص1237

الغلطة ليست في الآخرين،وانما في داخلي: لو كان في طاقتي أن اختار، لكنت طلبت يوم الدينونة اليوم.

حول الموت، ابن سعود إلى فيلبي من فيلبي. العربية السعودية،ص 351.

يعتبر الملك أن الولايات المتحدة هي وحدها القوة العالمية التي يمكن الاعتماد عليها ..... فهو لا يشعر أن في وسعه الاعتماد كما كان يفعل على قدرة بريطانيا لابقاء الهاشميين على الخط.

برقية من السفير شيلدز إلى وزارة الخارجية، 3

كانون الثاني 1950 في ابن الرشيد، الصراع بين اميرين.

عندما بدأت سنة 1945، كان ابن سعود في السبعين من عمره تقريباً، وخلال السنوات التي تلت، وحتى سنة 1951، كانت صحته تبدي تدريجاً المزيد من التراجع والانحطاط. ومن المحزن ان يكون هذا هو الوقت بالضبط الذي يتعين من التراجع والانحطاط. ومن المحزن ان يكون هذا هو الوقت بالضبط الذي يتعين فيه على حاكم دولة مترامية الاطراف، مواجهة ذروة تطور مشاكله، من ضغوط القوى الخارجية المتزايدة على البلاد، إلى التكيف مع التنامي السريع في الثروة التي باتت متوافرة لدى الملك، إلى الحاجة إلى خلق نظام ادارة على الاستجابة للتحديات الجديدة.

والى ذلك، فقد كان هناك حالة نهوض قوية في بلدان الجوار :في اليمن وفلسطين ولبنان والاردن وسوريا والعراق، في حين أن مصر قد غدت منخرطة في مقاومة مسلحة ضد الوجود البريطاني، الذي سيقود إلى معاهدة الجلاء سنة 1954. وفي منطقة الخليج نفسها، دخلت العربية السعودية في نزاع مع بريطانيا حول المطالب الحدودية في المناطق الشرقية من البلاد، بينما كانت ايران تقترب من ازمتها التي اندلعت عقب محاولتها تأميم صناعة النفط وعلى المستوى الداخلي، لم يتمكن الملك من ادخال النظم التي تحتاجها البلاد، والقادرة على استيعاب القضايا الاجتماعية والاقتصادية والمالية التي خلفتها عائدات النفط، والتي ستزيد سنة 1950 على الخمسين مليون دولار في العام الواحد. وما شكواه لفيلبي، سنة 1948 من حال الرياض، سوى إشارة فهم يائسة في هذا الوقت.

ربما قاد هذا الكلام إلى ان الملك كان عاجزاً كلياً عن الحكم، وأنه انسحب إلى حال "من بعدي الطوفان". لكن الحقيقة هي أننا سنجد ادلة أخرى توضح الطريقة أو الطرق التي كان ابن سعود من خلالها قادرا على فرض حضوره في هذه الحقبة.

فقد توصل في ما يعتبر انتصاره الاكبر إلى الحصول من أرامكو في اواخر العام 1950، على اتفاق المناصفة 50 / 50 لعائدات انتاج النفط السعودي. وفي كل الاحوال، فان العام 1945 لم يبدأ، واقعياً، باللقاء الشهير مع فرانكلين ديلانو روزفلت ووينستون تشرشل في مصر، وانما بزيارة

الملك فاروق إلى العربية السعودية. فقد التقى العاهلان في ينبع(1) في 25 كانون الثاني 1945 لبحث التقدم الحاصل في تأسيس ما بات يسمى بعد ذلك "بجامعة الدول العربية" أو الجامعة العربية، والتي انشئت في آذار 1945، وباتت المملكتان من الاعضاء المؤسسين للجامعة، غير ان مفاوضات تمهيدية ومساومات ومناورات كثيرة كانت قد ظهرت قبل اعلان وزراء الخارجية العرب في الاسكندرية في ترين الأول 1944، وبعده. وقدم البريطانيون، وسط دهشة الجميع وحيرتهم وليس ابن سعود وحده، كل الدعم والتشجيع لتأسيس الجامعة. ونتيجة لذلك، غدا أنطوني ايدن، وهو الذي قام بعد ذلك بشن الهجوم على مصر سنة 1956، غدا أول رئيس وزراء بريطاني، وغدا الوحيد الذي وضعت صورته سنة 1945 على الطوابع البريدية المصرية.

كانت العلاقات بين مصر والسعودية قد استؤنفت سنة 1935، مع تولي الشاب فاروق عرش مصر خلفاً لوالده، وبعد حقبة طويلة من القطيعة الفعلية، تلت حادثة "المحمل "سنة 1929. وسيغدو البلدان بعد ذلك أكثر اتصالا وقربى، وذلك مع تنامي عوائد النفط السعودية: فقد كان هناك المزيد من السياحة السعودية، والاستثمار التجاري السعودي في مصر، كما كان لدى مصر الكثير مما يمكن تقديمه إلى العربية السعودية، وبخاصة القوى العاملة المؤهلة لمواكبة حاجات التطور المتنامية. كذلك كانت مسألة الوجود البريطاني في مصر موضع نقاش، وخصوصاً بعد بدء حرب العصابات ضد هذا الوجود في حدود سنة 1950. وكان يمكن ان يرد بسهولة إلى الذهن احتمال المساعدة السعودية للمقاومة المصرية للوجود البريطاني، وبخاصة بعدما كان على السعودية ان تصطدم هي نفسها مع بريطانيا في النزاع حول "البريمي".

وكان فاروق قد عانى مما اعتبره أقصى درجات الاهانة عندما املى عليه السفير البريطاني في شباط 1942، اختيار ولي عهد مصر بمساعدة الدبابات التي طوقت قصره في القاهرة. كان هناك الكثير مما يجب بحثه بين ابن سعود والملك الشاب. لكن سياق محادثاتهما لم يخل دائماً من الاضطراب، ففي لقائهما في كانون الثاني 1945، بدا في لحظة ما أن الملك الشاب عاجز عن فهم ابن سعود، في لهجته الخاصة البدوية العامية، وأدرك ابن سعود ذلك، فما كان منه الا أن خاطب المصري الذي سيغدو أول أمين عام للجامعة العربية قائلاً "ترجم يا عزام".

وإذا كان عربي يمتلك العربية، كملك مصر، لا يستطيع فهم ابن سعود، فان الكثير من الدبلوماسيين والزوار الاجانب الذين يعرفون العربية، باتوا معذورين تماماً، إذا اقروا أن أجزاء كثيرة من أحاديث ابن سعود كانت تفوتهم، أو يصعب عليهم فهمها.ولم يكن غرافتي سميث 1945 أول أو آخر من يعترف بهذه الصعوبات اللغوية:

"لم يكن سهلاً عليّ فهم عربيته، أنها مزيج من الفصحى (التي أستطيع متابعتها)، والعامية البدوية والقبلية (التي لا أجيدها). كما أن صوته لم يكن على نبرة واحدة وكثيراً من كلامه كان يقوله بما يشبه الهمس، ولا يصل واضحاً إلى الاذن"(2).

وليس من الصعب إذن، تخيل المشاكل التي تواجه المترجم بين الملك وأحد زائريه، ولعله، وبسبب هذه المشاكل التي تواجه المترجم بين الملك وأحد المترجمين الذي لابد منه.

ففي آذار 1926، اسَر ابن سعود للهولندي فاندر مولن، بعدما اجتمعا على انفراد "الآن في وسعنا ان نكون وحيدين، من دون المترجمين، هؤلاء الاشخاص الاكثر خطرا وايذاء في العالم(3)".

كانت مقاربات ابن سعود اللغوية مقاربات بسيطة ومباشرة، مثلما هي مواقفه في مسائل عديدة من غرترود بل، وادوات الطعام الغربية، إلى السياسية الخارجية البريطانية وفلسطين. وفي حين ان ريدر بلارد يمتدح معرفة ابن سعود الواسعة بالشؤون العالمية، لم يكن في وسعه الا ملاحظة خصوصية لفظه لبعض الاسماء الاجنبية: فموسيليني يصبح ميسولوني Miss O Looney في، حين ان اسم تشيكوسلوفاكيا يقتضي قدراً من التقطيع ومساعدة حركات اليدين(4). حتى الأسماء العربية إذا بدت عويصة اختزلها إلى ما هو أقصر وأيسر: فمستشاره الخاص خالد الفرغاني(من العراق)، هو دائماً ابو وليد، إذ بدا الاسم ثقيلاً على اللفظ(5).

وكانت اللغة من الاهمية بمكان في اجتماعات ابن سعود مع روزفلت وتشرشل. وربما كان بعض الدليل على تطور جهاز الملك الاداري أنه كان قادراً، سنة 1945، على أن يكون له مترجمه السعودي الخاص(6)، محمد ابا الخير، خريج الجامعة الاميركية في بيروت. وقد قام هذا المترجم بدور بارز في المحادثات مع تشرشل، بينما كان الكولونيل ادي المترجم الرئيسي في المحادثات مع روزفلت.

كان ادي يجري تحضيراته الخاصة للقاء ابن سعود(7) في أكتوبر 1944، وقد فاتح يوسف ياسين في الموضوع الخاصة. وافق الملك فوراً على الفكرة ووضعت الخطط في سرية قصوى. فأمن الملك والرئيس لا يمكن ضمانه، الا على قاعدة من السرية التامة التي تقضي، بألاّ يطلع على الموضوع الا عدد محدود جداً من الاشخاص، والى الحد الادنى الذي لا مفر منه. وفي مطلع شباط 1945، انطلق موكب الملك من الرياض باتجاه الحجاز، وكان الكل يعتقد، عدا يوسف ياسين، ان وجهتهم هي مكة. وفي 12 شباط تركت المجموعة آخر مخيم استراحة لها في ساعات الصباح الاولى، وجرى اعلامها، في الدقيقة الاخيرة، ان قسماً من المجموعة لن يتجه إلى مكة، وانما إلى ميناء جدة. كانت تعليمات الملك تقضي بأن يصبحه فريق من 48 شخصاً، أي ضعف العدد الذي توقعه

ادي، رغم أنه كان قد تلقى من واشنطن، ان يؤكد للسعوديين ان العدد الاقصى يجب الا يتجاوز 12 شخصاً.

كانت الخطة تقضي ان تتولى المدمرة الاميركية "مورفي" حمل ابن سعود وفريقه إلى البحيرة المسرة الكبرى في خليج السويس،حيث يستقبل الرئيس الاميركي ضيفه على ظهر حاملة الطائرات كوينسي Quincy. وينقل ادي، بعد سنوات، وقائع أول لقاء موثق بين التكنولوجيا الحربية الحديثة، وثقافة البدو المتمثلة في ابن سعود، وبوجود هذا العدد الكبير الذي يرافقه. وكي يقوم الملك بواجب الضيافة، أصدر أوامره فحضر قطيع من الغنم يكفي لرحلة يومين من جدة إلى السويس.

لا داعي للاسترسال في تفاصيل المفاوضات، التي شارك فيها ادي مترجماً بين عبد الله سليمان وقائد المدمرة، والتي انتهت إلى انقاذ 93 رأس غنم من الذبح المحتم، واكتفي بسبعة خراف ذبحت وفق الاصول، أي ذبحاً شرعياً يجعل أكلها حلالاً وفق تقليد المسلمين.

كان الملك، في السفينة، قد أعطي كابينة تليق بالمقام، الا أنه فضل الانضمام إلى افراد فريقه في النوم على السطح، وفي مشاركتهم كذلك اداء الصلاة في اتجاه مكة. في أثناء ذلك، وفي عودة إلى البر، كان فيصل ابن الملك يواجه صعوبة بالغة في تهدئة الجمهور، وخاصة نساء الاسرة، اللواتي كن في الموكب، ثم رأين الملك يختفي فجأة خلف افق البحر. فسرت في جدة شائعة خطف الاميركيين لابن سعود ولكن الهدوء استعيد بسرعة. وضم فريق الملك شخصيات رئيسية مثل شقيقه الأمير عبد الله بن عبد الرحمن، ابنيه منصور ومحمد، ومستشاريه الاقربين يوسف ياسين، وحافظ وهبه، ورشاد فرعون، وبشير سعداوي، وعبد الرحمن طبيشي، وآخر حدده الزركلي بوصفه احد افراد حاشية الملك(8). ومن مهامه ارشاد الملك في أثناء عملية الابحار إلى جهة مكة كيما تكون الصلوات الخمس صحيحة. أبدى ابن سعود، على متن المدمرة الاميركية، اهتماماً وفصولاً بالسلاح الاميركي الذي يلتقيه للمرة الاولى، تماماً مثلما فعل سنة 1916 عندما شاهد لدى البريطانيين الطائرة للمرة الأولى، وجرى تصوير يده باشعة إكس. قدمت للملك عروض حية للمدافع المضادة للطائرات، والتكنولوجيا المضادة لاهداف الاعماق، والتي لقيت جميعها تقديره وثناءه.

عمل الاميركيون كل ما في وسعهم لاظهار حسن وفادتهم واحترامهم للملك، ومن ضمنها إعداد طعام خاص للفطور. وحين قدم خادم أسود الفطور هذا للملك، وهو المعروف بأكله الخفيف، اعتذر الملك فتقدم يوسف ياسين، القريب منه ليقوم بالواجب، بتشجيع من الملك الذي قال له "انت سمين وتحتاج إلى طعام اكثر". لكن الخادم سحب الصينية بأدب قائلاً ليوسف ياسين: "لا. هذه خصيصاً للملك وليس لاحد سواه(9)".

وعرض امام الملك على سطح المدمرة، فيلم وثائقي حول مغامرات القاذفات الاميركية في الباسيفيكي، ولعله أول عرض فيلم يحضره الملك. كانت ردة فعله الشخصية متحفظة، لكن سكان حاسماً في أن مثل هذه الأمور يجب الا تعرض أمام شعبه لأنها لن تؤدي إلى صرفه عن واجباته الدينية(10).

وقبل ان يغادر الملك المدمرة، وزع كالعادة هدايا وتقديمات على افراد الطاقم: 40 دولاراً لكل فرد في الطاقم مع خناجر وسيوف مذهبة للضباط الأعلى. وقابل قائد المدمرة لفتة الملك بتقديمه لابن سعود اعتدة واسلحة رشاشة.

ومع وصول ابن سعود، كان ضرورياً حمله إلى متن كوينسي، لأن الملك كان شبه مقعد بفعل داء المفاصل. ثم كان أول اجتماع له مع الرئيس لساعة ونصف الساعة بحضور ادي المترجم. ودعا الرئيس الملك وصحبه إلى مأدبة غداء. استغرقت اللقاءات بين الرجلين خمس ساعات من ضمنها، حسب الجميع، مأدبة الغداء.

تقدم وثائق اللقاء وصفاً للموضوعات التي جرى التباحث حولها، وبخاصة مسألة فلسطين(11) . ويصف روزفلت الملك، وبحق، انه لخص له في خمس دقائق وبوضوح، ما لم يجده في كل المذكرات والادبيات التي تناولت المسألة.

حاول الرئيس لمرات ثلاث منفصلة، اقناع ابن سعود ليكون اكثر تساهلاً في السماح بهجرة حرة لليهود إلى فلسطين، بدعوى المعاناة القاسية التي تعرضت لها المجموعة اليهودية الاوروبية في أثناء الحرب العالمية الثانية، والتي بلغت نهايتها الآن بهزيمة ألمانيا. وكان جواب الملك: "اعطوا اليهود واحفادهم ما يختارونه من بيوت الالمان الذين اضطهدوهم وأراضيهم".

وحين رد الرئيس "إن اللاجئين اليهود يفضلون المجيء إلى فلسطين، اجاب ابن سعود بالقول" ان المجرم وليس البريء، هو الذي يجب مطالبته بالتعويض ورفع الضيم"!

قاوم ابن سعود بحزم كل مناشدات الرئيس السماح بهجرة حرة للاجئين اليهود إلى فلسطين، ونال، بالمقابل، وعداً من الرئيس روزفلت انه لن يتخذ أي خطوة معادية للعرب وأنه لن يكون هناك اجراءات من الجانب الاميركي تؤثر على مصالح اليهود والعرب قبل التشاور المسبق على ذلك.

لم تكن فلسطين الموضوع الوحيد الذي جرى بحثه بين روزفلت وابن سعود.

فالمشاركة السعودية في المجهود الحربي كانت موضع ثناء، كما أكد الملك التزامه بعدم معاداة الحلفاء،أو ما سيتحول في آذار 1945 إلى إعلان حرب ضد المانيا واليابان.

لم يكن للنفط ان يغيب عن اذهان المشاركين(12). فجرى التوصل إلى اتفاق يعطي شيئاً اضافياً للجانبين، فمنطقة اتفاق كاسوك جرى توسيعها، وزادت الجعالة على برميل النفط من 18 سنتاً.

وكانت امكانية بناء خط انابيب ينقل النفط من الاحساء إلى شاطيء المتوسط، قد اقترحت منذ مطلع سنة 1943، وفي أثناء بحثها مع الرئيس روزفلت، كان الملك صريحاً تماماً بتفضيله تكليف شركة خاصة القيام بالمشروع.

وقبل اختتام ذلك النهار، أهدى الرئيس الملك كرسيا بدواليب، شبيهاً بكرسيه، لمساعدته في وضعه الصحي. وهو ما دعاه الملك تندراً بالحصان! كذلك كان للرئيس تجاه الملك لفتة رمزية هي عبارة عن طائرة DC -3 قدمها له هدية، غدت علمياً اللبنة الأولى في انشاء الخطوط العربية السعودية بمساعدة شركة الطيران الاميركية "TWA". كان على سفينة الرئيس الحربية ان تبحر في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك النهار، لتتجمع مع قافلتها في طريق العودة عبر الاطلنطي. وهكذا لم يكن في وسع ابن سعود رد واجب الضيافة للرئيس، الا أنه اصر، مع ذلك، على تقديم القهوة العربية المرة للرئيس رمزاً للضيافة العربية.

ويروي الزركلي أنه، بعد مغادرة الرئيس، وقعت حادثة حقيبة الادوية، كان الملك قد رحل للتو إلى محطته الثانية للقاء ونستون تشرشل عندما عدي الزركلي عند منتصف الليل إلى جناح الملك. فأخبره الملك(13) ان احد الخدم المجانين نسي حقيبة ادوية على المدمرة الاميركية، وأن على الزركلي استعادتها.لكن الزركلي أدرك أنها مسؤولية القوات المسلحّة الاميركية. وهكذا ذهب لايقاظ إدي الذي رتب مغادرة طائرة اميركية لتواكب كوينسي في المرفأ التالي الذي من المقرر ان تصله واستعادة حقيبة الدواء.

وفكرة لقاء تشرشل بابن سعود لم ترد إلى ذهن البريطانيين الا بعدما ذكر روزفلت لرئيس الوزراء البريطاني، ليلة مغادرته يالطا، في 11 / 2 / 1945 انه ذاهب للقاء ابن سعود. والرواية التي ينقلها إدي سنة 1954 للأحداث ترسم تشرشل يقلب السماء على الارض، أو العكس ، للحصول على فرصة مساوية لفرصة روزفلت، فكان جواب غرافتي سميث ان الملك ابلغ بعثتنا في جدة انه مستعد فقط ان يذهب إلى القاهرة إذا كان مناسباً للقاء رئيس الوزراء البريطاني وكذلك الرئيس الاميركي.وبقدر لافت من المراعاة(14)، سأل الملك مضيفه وهما على كوينسي: لديه اعتراض على لقاء تشرشل؟

تم لقاء ابن سعود وتشرشل في فندق صغير في واحة الفيوم. واخليت صالة الفندق من جميع نزلائها المعتادين، فأقام تشرشل حفل عزاء كبير على شرف الملك وصحبه، ويصف غارفتي سميث الذي قام ببعض الترجمة في اللقاء، حفل الغداء بأنه نجاح عظيم، لكن رأيه هذا لا يتفق مع آراء المشاركين العرب(15). كان غرافتي سميث مرتاحاً، بلا شك، لأن رئيس الوزراء لم يحاول اقناع الملك بالاعتدال في مسألة الهجرة اليهودية، ولا بالمحاضرة التي اسمعها لغرافتي سميث قبل اللقاء،

ومؤداها ان البريطانيين قد فعلوا الكثير للهاشميين، لعبد الله في الأردن، ولفيصل في العراق، وأنه قد حان الوقت بالتأكيد لأن يفعل "العرب" شيئاً بالمقابل. وكان هناك مصدر راحة آخر للدبلوماسي البريطاني القلق، وهو مبادرة تشرشل إلى ابعاد عدة الكحول التقليدية، واستبدالها بكؤوس داكنة لإخفاء ما فيها.

قدم الملك لرئيس الوزراء عينة من مائه المفضل، من قرب مكة، وصفه تشرشل في ذكريات الحرب بأنه: "اطيب ما ذقت على الاطلاق". كما انه قدم هدايا ثمينة لضيوفه: "قدمت لنا جميعاً سيوف مرصعة بمقابض من ماس، وهدايا ثمينة أخرى ". أما سارة، ابنة رئيس الوزراء، فقد اكتشفت في الطرد الذي تلقته، لا الاثواب العربية الجميلة فحسب، وانما اكتشفت كذلك، من العطور والماس، ما تصل قيمته إلى 1200 جنيه. وينقل تشرشل الشعور بالارتباك الذي احسه امام مشهد الفقر الذي بدا حين ارسل مرافقه إلى القاهرة لشراء عطور تقدم هدايا للملك بما لا يزيد على 100 جنيه، معتذراً للملك: "ان هذه مجرد تذكارات، فحكومة صاحب الجلالة قررت إهداءكم أجمل سيارة في العالم، فيها كل تسهيلات الراحة وكل الاحتياطات الامنية ضد أي عمل عدائي".

وفي وقت لاحق من ذلك العام، كان غرافتي سميث، معنياً بالاشراف على تسليم رولز رويس فضية – رمادية تستجيب مواصفاتها لحاجات المرافقة والصيد في آن. وارسل فوراً سيريل عثمان عبر الصحراء مع السيارة الثمينة، والتي جرى تقديمها إلى الملك في باحة قصر المربع. ابدى الملك اعجابه بهدية رئيس الوزراء، لكن عثمان، وقبل مغادرته، سمع الملك يقول لاخيه الأمير عبد الله: إن في وسعه الاحتفاظ بها: فقد لاحظ الملك ان مقود السائق إلى اليمين مما يعني انه سيكون عليه الجلوس إلى يسار السائق، إذ انه يسير في طليعة السيارات، وهذا ليس لائقاً، فمقعد الشرف هو إلى اليمين. ويختم غرافتي سميث حزيناً: "إن السيارة الأفضل في العالم لا يمكن استعمالها(16)".

لم يمكث ابن سعود بعد لقائه تشرشل طويلاً في مصر، فقد قاوم فكرة القيام بجولة في القاهرة للتعرف على معالمها، ليتمكن من العودة من دون تأخر إلى جدة وطمأنة شعبه. فجرى إعداد شائعات غير صحيحة عن رش الملك لعطاياه وتقديماته على طول الطريق من الأهرامات إلى مركز المدينة(17) . وبينما كانت القافلة تمر بالاهرامات، ورويت له قصة بنائها، كان تعليقه: "إنه اسراف" أي تبديد رهيب للمال". وصعد الملك إلى سفينة الحرب البريطانية محمولاً مع كرسيه المتحرك. وحين نزل الملك في جدة كان الوضع مختلفاً فهو عائد الآن من "اخطار" العالم الخارجي الذي ما يزال في حرب.

والغريب بخصوص الاجتماع بتشرشل، أن المترجم الرسمي البريطاني لتشرشل يعطي رواية لسياق المباحثات السياسية مختلفة عن رواية السعوديين والاميركيين بل ايضاً رواية تشرشل نفسه. يوضح

غرافتي سميث في كتابه انه سعى جاهداً لابعاد تشرشل عن الموضوع الفلسطيني. وبخلاف ذلك، فإن تشرشل في روايته عن اللقاء يؤكد انه جرى بحث الموضوع الفلسطيني مع ابن سعود. وينقل "إدي" ان الملك حدثه عن غضبه لوقاحة تشرشل الذي لفت إلى ان وقاع المساعدات البريطانية التي استمرت طويلاً يسمح ان يطالب بالاعتدال في الموقف السعودي والمبادرة إلى نوع من الحل الوسط مع الصهيونية.

والاحتمال الممكن هنا هو ان الملك، في استعادته لمباحثاته مع تشرشل، ربما كان يقرأ من جديد في كتاب قديم وهو معرفته بانخراط تشرشل ولفترة طويلة في المشكلة الفلسطينية. فقد كان، قبل كل شيء، وزير الدولة للمستعمرات الذي دعا سنة 1921 لمؤتمر القاهرة، والذي ولىّ فيصل في العراق وعبد الله في شرق الأردن ، واتهمه العديد من العرب بانه كان متعاطفاً مع الصهيونية.

وفي كل الاحوال، فقد عاد ابن سعود من لقاءيه، كما يتبين بعد ذلك، خالي الوفاض، فوعود روزفلت لم يكن مقدراً لها ان تسفر عن شيء، اولاً لأن روزفلت قد مات في حدود منتصف نيسان، والرئيس الجديد ترومان كان قد فاز بفعل تركيزه على ان الاعتبارات السياسية المحلية يجب ان تكون هي الغالبة في مسألة دعم الصهيونية أو عدم دعهما. ثم مع افتراض بقاء روزفلت، فهو ربما كان قد لجأ إلى مقاربة أخرى مع ابن سعود، إذ نقل عنه قوله لخاصته انه، ببضعة ملايين من الدولارات، سيكون قادراً ان يملي على ابن سعود ما يريده(18).

وفي آذار 1945، استطاع ابن سعود تأمين مقعد للعربية السعودية في قاعات اجتماعات المنظمة العالمية الجديدة، الأمم المتحدة، والتي مثل فيصل بلاده في لقاءاتها. وكان للقاءات سان فرنسيسكو، في واحدة من نتائجها، أنها فتحت أعين أجيال من السعوديين على أضواء كاليفورنيا.

استقبل الملك في حزيران 1945 أحد أوائل الزوار الأجانب الذين كانوا يأتون للحصول على فرصة للتعرف إلى هذا الرجل الذي بات يعرف الآن، عالمياً، كشخصية أبوية، برزت حديثا اثر سنوات من الغزو والبؤس، وتمتلك مع ذلك ثروة اسطورية.

ولم يكن الاخير بين زوراه، كذلك، نائب الملك على الهند، فيلد مارشال وآيفن، الجندي والشاعر وقائد الاركان السابق للقوات المسلحة البريطانية في الشرق الأوسط . لقد كان في طريقه إلى الهند منتصف الصيف حينما اقترح عليه غرافتي سميث زيارة ابن سعود.وقبل الملك الفكرة بسرور.

وبعدما نزل في جدة، يمم نائب الملك شطر الرياض لمقابلة ابن سعود في حزيران 1925(19).

يصف غرافتي سميث المشهد، الذي بات نمطاً يلحظه في زياراته كلها.

اصوات شجّية لخمسة رجال عميان يرتلون القرآن، إلى العنين الدائب لدواليب المياه، وفي الخلف الحارس الشخصي لابن سعود بثيابه الحريرية الفاتنة المذهبة والمطرزة.

ويمضي في وصف إحدى مآدب ابن سعود، وهي مجرد نموذج لغيرها. "لم يكن ابن سعود اكولاً كبيراً، وفي مقابل اطباقنا المتنوعة، فضل هو ابريقاً كبيراً من حليف النوق الساخن يسكب له ببطء. ويسلب الملك كعادته لب زواره بهداياه القيمّة، الا أنه كان مندهشاً هذه المرة بالهدية التي قدمت له. فقد اهداه نائب الملك قرآناً مزيناً بالزخارف.

لم تفت ابن سعود لفتة نائب الملك الذي خلف على الهند النائب السابق الذي تجاهل محاولة والده سنة 1902، لانشاء علاقات وثيقة بين بريطانيا وآل سعود.

وفي تموز 1945، استقبل الملك زائراً آخر من انجلترا، عندما استطاع فيلبي ان يستعيد حريته ويتوجه من انجلترا إلى القاهرة. ارسل الملك طائرته الخاصة لنقله من القاهرة إلى الرياض، وبات في وسع فيلبي ان يستأنف حياة لا تتضمن دفع الضرائب، وتؤمن له سكناً وسفراً جوياً مجانياً، حيث لا حاجة لتسجيل سيارته، ويأكل من مطبخ الملك، حتى لا نذكر لقاءاته وعدداً من الصبايا الشابات بين الحين والحين(20).

كان ابن سعود، كما يبدو، مقتنعاً بصدق، وكما قال لأناس كثيرين: ان فيلبي انما ترك الوظيفة في الحكومة البريطانية ليكون في خدمته هو. "وذلك هو ما يعتقده الناس" بحسب الزركلي، "سبباً للمعاملة اللطيفة الدائمة من ابن سعود لفيلبي".

لم يكن ليجهل بالتأكيد فيلبي ولا غافلاً كذلك عن الحاجة إلى الحذر. ويذكر الزركلي كيف كان الملك غالباً أو بمجرد رؤيته لفيلبي داخلاً المجلس، يغير الموضوع الذي يتحدث فيه(21).

ورغم تقدم ابن سعود في السن في هذه الفترة، كان يكتسبن ما وسعه الامر، خبرات وتجارب جديدة، ففي تشرين الأول 1925، قام بأول رحلة له بالطائرة، وقد غدا من بعدها متحمساً بحرارة الموضوع الطيران. لكنه لم يعجب بالطيران على ارتفاعات عالية. ولعل من الضروري الملاحظة أنه بالرغم من امكانيات النقل الجوي التي وفرها الطيران، فإن ابن سعود لم يستغرق هذه الامكانية إلى اقصى مداها في عبور البلاد طولاً وعرضاً، فلم يظهر انه زار، مثلاً، منطقة عسير.

وفي الشهر نفسه الذي ركب فيه ابن سعود الطائرة، للمرة الاولى، واجه الاشكالية الأكثر صعوبة وهي تردده بين أصول الضيافة العربية وأصول السياسة في العلاقات مع بريطانيا والمملكة العراقية. فقد تقدم منه في الجامع بالرياض رجل دخل البلاد بدعوى أنه واحد من مجموعة صحافية سورية(22).

إلا أنه كشف عن نفسه بوصفه فارا من العراق. انه رشيد عالي الكيلاني، أحد زعماء الثورة ضد الملكية في بغداد سنة 1926، ولم يكن بالإمكان من قمع التمرد الا بمساعدة القوات البريطانية، وصار في وسع العاهل ونوري السعيد العودة إلى البلاد. فر الكيلاني، إثر ذلك، إلى اوروربا. ومع

نهاية الحرب غادر فرنسا بجواز سفر مزّور ليجعل طريقه إلى الرياض عبر بيروت ودمشق. كان ابن سعود قادراً ان يرى بسهولة الوضع المستجد وأن عدوي هو صديقي. لكن الملك فضل الحذر. ويروي غرافتي سميث ان الملك استشاره في ما يجب فعله، وانه نصحه ان يمدد في ضيافته فترة ثم يخرجه من البلاد(23). ويمضي غرافتي سميث ليقول إنه لم ينصح بابعاده إلى العراق، الأمر الذي سيجلب عاراً على الملك، وانما إلى الكويت على سبيل المثال، حيث يكون في وسع البريطانيين وضع اليد عليه في الوقت المناسب. اخذ ابن سعود بهذا الرأي مع ملاحظة انه، لو بدا مسؤولاً عن اعتقال الكيلاني، فإن نساء بيته سوف يبصقن في وجهه. واستشار الملك بذلك الملك فاروق حول امكانية قيام فاروق بالتوسط مع العراقيين، ولكن العاهل المصري، وفي لقاء حضره الزركلي على البحر الاحمر، نصحه بأن العراقيين هم تحت سيطرة البريطانيين، وهكذا فلا أمل في صدور عفو عن كيلاني. وهكذا استنتج ابن سعود ان تسليمه يعني اعدامه، وان ذلك سيكون مصدر عار دائم للعربية السعودية(24)، وللملك شخصياً.

تطورت العلاقة مع الملك فاروق، وغدت اكثر قربى مع مطلع العام الجديد، إذ انه في 6 كانون الثاني، وصل الملك إلى مصر في زيارة اريد لها، وبناء لرغبة الملك فاروق، ان تكون زيارة رسمية. وكانت زيارة الملك الرسمية الأولى والأخيرة، كذلك، لدولة خارج الخليج وشبه الجزيرة، وأول عمل دولي رسمي يؤديه بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

أرسل المصريون ثلاث سفن إلى جدة لنقل ابن سعود وصحبه. وركب ابن سعود في "محروسة" يخت فاروق، الذي غادر على متنه مصر بعد ثورة 1952. كان الملك في انتظار العاهل السعودي في بور توفيق، ثم تابع الجميع إلى القاهرة بواسطة "قطار ملكي من السويس".كان وصولهما وصول المنتصر إلى محطة سكة حديد رمسيس، ثم تقدما باتجاه القصر الملكي وسط حشود ضخمة متحمسة.

بقي اعضاء الوفد لبعض الوقت ضيوفاً في قصر عابدين ثم انتقلوا بالقطار إلى رأس التين في الاسكندرية.

جعل ابن سعود فيلبي في عداد حاشيته، لكنه لم يكن في لائحة ضيوف الحكومة المصرية الرسميين. كان وجود رجل انجليزي بين أفراد حاشية أشهر زعيم عربي يزور مصر، حتى ذلك الوقت، مثار حيرة عندهم.

كذلك عني البريطانيون بزيارة ابن سعود، وارسلت اشارة تطلب التعويض عن فقر هدايا تشرشل لابن سعود في العام الفائت. وسبب ضعف نظر الملك وحاجاته الدائمة لنظارات في كل مكان، أجرت السفارة ترتيبات اهداء الملك ما لا يقل عن 365 زوجاً من النظارات!(25).

كان لزيارة الملك إلى مصر ،التي استغرقت 15 يوماً، آثار مستقبلية بعيدة المدى. فعقدت اتفاقيات لتقديم مساعدة مصرية تقنية وتربوية إلى العربية السعودية، وتلقى الملك فاروق عوناً مالياً سنوياً، كما تلقت العربية السعودية سكة جديدة.

تأثر الملك تأثراً عميقاً برحلات القطار في أثناء زيارته، وفور عودته اعطى أوامره باجراء الدراسات التقنية الضرورية التي أثمرت سنة 1951 افتتاح خط سكة حديد الرياض– الدمام. وما خياره لهذا الشكل من المواصلات غير نتيجة لطريقة الملك المباشر والواقعية في مقاربة المسائل كافة، ولقناعته التامة ان المملكة في سياق عملية الاعمار التطوير، ستحتاج إلى واردات ضخمة. كان في وسع ابن سعود ان يرى تماماً ان الطرق واستعمال النقل بالسيارات يمكن ان يكون اكثر سرعة من السكة الحديدية، الا انه، مع ذلك، قد أخذ عاملاً آخر في الاعتبار، يعرفه كاتب هذه الصفحات من مدير مواصلات بلد خليجي نفطي غني، عاملاً ما زال موجوداً وهاماً وهو من عادات البدو في زيارة اصدقائهم مع عدم الالتفات بعناية للمواعيد العملانية.

استقبل ابن سعود، سنة 1926، وفداً سورياً بعد لقاءات تمهيدية بدأها في أثناء زيارة مصر في مطلع 1945. فقد تمكن الكفاح السوري من أجل الاستقلال اخيراً من اخراج القوات الفرنسية من دمشق، وقد مثلت زيارة 1946 الخطوة الأولى في عملية ستقود إلى جعل العلاقات السعودية السورية إحدى أقوى العلاقات في اربعين عاماً. وعند هذه المرحلة، قدّم ابن سعود مديحاً واضحاً للسوريين عموماً، ولاولئك الذين عملوا معه مستشارين على وجه الخصوص، وتحدث في الوفد، فكان في منتهى الفصاحة وهو يروي صفحات جهاده والتضحيات البطولية التي بذلت، وكان ذلك نوعاً من التشجيع لهم. عرض الجراح التي في جسده وكيف أنه خلال 25 سنة من الكفاح، كانت تمر أحياناً عشرة أيام من دون طعام(26).

لم يكن الحديث عن سوريا، حتى في مثل تلك المناسبة، غير الحديث عن فلسطين في الواقع، فقد شغل الموضوع الفلسطيني ذهن ابن سعود باستمرار، وبخاصة في الفترة التي انتهت باعلان قيام دولة اسرائيل في 15 آيار 1948. لم يكن هناك شك في عمق مشاعر ابن سعود حيال فلسطين، وقد تبين ذلك من جديد لدى استقباله البعثة البريطانية _ الاميركية في آذار 1946. وفي مختلف الاتصالات التي أجرتها البعثة لم تسمع البتة مثل هذا الكلام الحاد، حتى التهور، وفي موقف يتناول اليهود عموماً:

اليهود اعدائي اينما كانوا، وفي كل بقعة دخلوها انما ادخلوا معهم فسادهم، وعملوا ضد مصالحنا. تكلم الملك إلى البعثة بوصفها تمثل البلدان التي كان حليفاً لها. وقدم المساعدة لها في الحرب الاخيرة. فاستذكر مساعدة البريطانيين في تأكيد ولاء القوات المسلحة في الهند، والوعود التي تلقاها

مقابل ذلك، ثم استذكر ايضاً كيف جاء المفوض البريطاني في جدة بعد الحرب يسأله المساعدة في تهدئة العرب في وجه الأعمال الإرهابية الصهيونية كيما يبرز الصهيونيون على حقيقتهم:
"لقد فعلت ما بوسعي في هذا المجال إلى أن بلغ الموقف ما بلغه".
ثم اسهب في وصف مشاعر الإهانة التي يحسها: "أنا الآن في وضع دقيق مع شعبي وجماعتي، مع العرب والمسلمين، واذا كانت المملكة المتحدة ترغب الآن في التحول عما هو حق واضح، أو ترغب في أن تكون وعودها مجرد كلام لا قيمة له، فلن يبقى غير خيار واحد وهو أن أتوجه إلى المسلمين فاقول لهم: "اقتلوني، اعزلوني، فذلك ما أستحقه. لقد اخطأت معكم وأسأت إلى تطلعاتكم"(27).
وبخصوص التساؤل الضمني حول الخيارات المتاحة أمامه لعمل شيء ما، أجاب ان بلاده لن تقاتل اليهود لأن ذلك سيعني قتالاً ضد بريطانيا. ثم عاد ثانية إلى موضوع الصداقة مع بريطانيا. قائلاً: إنه ان لم يرد ايذاء مشاعر اعضاء البعثة البريطانيين، لكن صراحته نابعة من صداقة بريطانيا:
جاء اليهود إلى اراضي العرب، سلبوا ممتلكاتهم وطردوهم وآذوهم. وعلى ذلك فأي سبب أو دين أو سياسية، يمكن ان تقنع العرب بقبول هذا الوضع؟ وانتهى إلى ان مستشاريه يعدون مذكرة بموقفه سوف تسلم لأعضاء البعثة. أعد المستشارون المذكرة، وقضى فيلبي الليل بكامله يترجمها ويطبعها على الآلة الكاتبة، لتسلم للبعثة تسهيلاً لعملها.(28).
كانت الثروة الناتجة عن النفط والتي تزداد باطراد، مع دخول العالم مرحلة إعادة الاعمار، بعد الخراب الذي سببته الحرب، هي السبب الرئيسي وراء تعقيدات موقف ابن سعود في موضوع فلسطين، كما في سائر القضايا العربية والدولية. ففي أول سنة مالية كاملة، بعد استئناف التصدير، تلقت العربية السعودية اكثر من عشرة ملايين دولار، الا أنه لم يكن لديها في الواقع غير قنوات بدائية للتعامل مع هذه الثروة. فدفعت المبالغ في حساب فتحه عبد الله سليمان(29). في نيويورك، وكان يتضمن كذلك أمواله الشخصية. وكانت الضغوط القوية في مسألتي المداخيل والنفقات والسنوات الطوال من العسر والتقشف والعمل اليومي المضني، قد حولت هذا الرجل إلى الشراب، وفق ما يصفه غرافتي سميث في هذه الفترة، بكونه "وزير المالية الوحيد الذي يشرب السبيرتو(30)"، لم يكن الملك على علم بالوضع الحقيقي لمالية البلاد، التي وصلت إلى نقطة باتت معها المسافة بين المداخيل والنفقات تعني ان دولاراً واحداً من أربعة دولارات تنفق يجب ان يستدان. لم يكن هناك من وسيلة تنفع في ضبط نفقات، وسكن، ومصاريف العائلة الكبيرة الضخمة،

التي أنشأها ابن سعود، وتستجيب لمطالبها الدائمة بالمزيد من الرفاهية، ناهيك عن تمويل مشاريع التطوير مثل حاجات السكان، كالمدارس، والدواء، والاسكان، والطرق.
لقد كان هذا الاسلوب في الانفاق المتمادي على كماليات لا لزوم لها مع كل الفساد الناتج عنها، هو الذي دفع فيلبي إلى إدانته بقوة، حتى في أيام ابن سعود الذي احبه وأخلص له: "لقد تجاوز سخاء الملك حدود المعقول وكان طبيعياً ان يجلب في طريقه الفساد"(31).
وينقل فيلبي مثلاً عن الطريقة التي كانت ارادة الملك تنفذ بها في كل المسائل وخصوصاً في مسألة الموارد المالية.
ففي فترة ما بعد الحرب مباشرة، قدمت الولايات المتحدة الاميركية مساعدة بقيمة 25 مليون دولار بشكل امدادات طعام وفضة. رفض عبد الله سليمان هذا العرض مقابل 10 ملايين دولار نقداً، تصرف على انارة شوارع الرياض وعلى انشاء مستشفيات في الرياض والطائف وفي ميناء جدة. لكن ابن سعود رفض خطة الانفاق هذه(32)، واعطى الاولوية المطلقة لانشاء سكة حديد الرياض _ الدمام.
يصف فيلبي حياة الملك في هذه المرحلة بنغمة حزينة، اما وقد استفاد من غياب خمس سنوات اجبارية عن صحبة الملك، فقد كان في وضع مثالي يسمح له أن يسجل التناقض في سلوك ابن سعود ومواقفه ومظهره الخارجي. كما انه كان في وضع سمح لابن سعود بأن يكون صريحاً معه في اكثر مسائله الشخصية الحميمة، وبخاصة، علاقته الجنسية وزيجاته.
قال الملك، حسب فيلبين انه يشعر بالضيق في هذه الفترة من حياته، كما يكتفي باداء واجباته الزوجية مرة واحدة في الليلة(33). ويستنتج فيلبي من ذلك، خطأ أو صواباً، ان ابن سعود كان يقلقه انه بات عاجزاً عن انجاب طفل آخر بعد ميلاد حمود عام 1947.
إلا أن ما هو ثابت ان ابن سعود بدأ يدرك تأثير مرور الزمن، وذلك من خلال توقفه عن قيادة موكب الحج كل سنة.فتولى ابنه متعب شرف قيادة حجاج نجد بينما استمر والده في أداء حراسة المسجدين المقدسين، من خلال ادائه الحج ومناسكه بصحبة الامراء الأول .
ويأسف فيلبي كذلك كيف ان الملك قد اصبح سجين خزانة ادويته "لقد شجع اطباءه على حقنه بالحبوب والادوية لاتفه الاسباب(34)".
وهذا ما يسمح بتفسير بعض جانب غير مفهوم في سنوات ابن سعود الاخيرة. إذ سجل عنده انحدار لافت وسريع نحو الشيخوخة والعجز، وبعد وقت قصير فقط من اعطائه تقريراً طبياً ممتازاً بنتيجة كشف اجراه عليه اطباء اجانب مختصون.

فالطبيب الاميركي في بعثة الولايات المتحدة، الذي كشف عليه سنة 1947، أفاد أن ابن سعود هو في وضع ممتاز لرجل في عمره"(35)، حيث اسنانه كاملة وفي وضع ممتاز، ومن دون آلام كبيرة يتسبب بها بطن سمين تقريباً، وفتاق قديم لم يلتئم، ظل معه طوال حياته. ومع ذلك، ففي نيسان 1950، افاد الاطباء الاميركيون ان ابن سعود في حالة عجز متزايدة بسرعة، وبقي لصيق كرسيه المتحرك دائماً.

وحتى في سنة 1947، حينما كان يزوره صحافي بريطاني يدعى جورج بيلاينكن، غاب الملك عن الوعي للحظات خلال استقبال فيلبي والصحافي حوله.

ومع ذلك، فقد كان ابن سعود قادراً عندما طرح الصحافي موضوع فلسطين ان يظهر الحدة الفكرية السابقة نفسها:

"وبعدما حدق بي مطولاً، وبنوع من الشفقة، تابع ابن سعود، أنا أخجل عن البريطانيين، لأن اليهود هم صانعوا سياسة بريطانيا. الطريق واضحة تماماً فالبلاد عربية، نحن نرغب في السلام في فلسطين، ونريد الاستقلال لفلسطين. اليهود هم محتلون وللعرب الحق في أن يطلبوا تحررهم من المحتلين"(37).

كانت فلسطين أحد أسباب التشاؤم الذي خيم على نظرة ابن سعود إلى الوضع السياسي العالمي في تلك الفترة، إلا أنها لم تكن الاسباب، كلها، فقد كان ما يزال متابعاً وقريباً من تطور السياسة الدولية، وكان حتى سنة 1951، يقرأ بنفسه تقارير البعثات الدبلوماسية، ويأخذ ملخصات الانباء الدولية والتي تقرأ له. وفي نهاية 1946، عبر فيلبي عن احباطه حيال انتشار الشيوعية(38)، واحتمالات السلم العالمي، حتى انه توقع نشوب حرب عالمية في ربيع 1947.

في هذا الوقت كان فيلبي يؤدي الدور الذي وضعه فيه ابن سعود، أي موقع المعارضة. لقد كان مستعداً خصوصاً ان لا يتفق مع الملك في موضوع فلسطين، إذ ان ابن سعود كان مستعداً ان يرى بعض الخير في الانتداب البريطاني. بينما كان فيلبي يرى أن استمرار وجود الانتداب لا يمكنه ان يقود إلى انتشار البلشفية في العالم العربي. في مناسبة شهيرة سنة 1947، بلغت معارضة فيلبي لآراء ابن سعود في مجلس مفتوح امام الحضور، حداً متقدماً تسبب "بعاصفة من الغضب الملكي"(39)، وبخلق موقف متشكك حياله، من جانب اولئك الذين يحضرون عادة مجلس ابن سعود كذلك خيم جو شبيه بهذا في مناسبة ثانية كان يطلها هذه المرة كيم فيلبي، ابن عبد الله فيلبي. كان كيم قد غدا في أثناء الحرب العالمية الثانية عضواً في المخابرات البريطانية الخارجية، بينما كان في حقيقته يعمل عميلاً لمصلحة السوفييت، ثم اعطي مركزاً في تركيا ومنها أتى إلى

زيارة والده في جدة. قدم الوالد ابنه إلى بلاط ابن سعود، بشيء من الاعتزاز، لكن اللقاء مع ابن سعود انتهى، لسبب ما، إلى كثير من الخيبة والفتور.

ارسل الملك عبد الله فيلبي بعد ذلك إلى الهند لاتمام الترتيبات لاستيراد كميات كبيرة من الخيام بهدف استخدامها لايواء الحجاج. وفيما كان فيلبي راغباً في هذه الزيارة، وهي الأولى له منذ 1915 حين بدأ العمل موظفاً هناك، كان ابن سعود يرمي إلى هدفين في آن، الأول التحرر من فيلبي لبعض الوقت، إذ إنه من غير المعقول أنه لم يكن في وسعه إيجاد شخص آخر للقيام بهذه المهمة، والثاني أنه كان يرغب بالحصول على معلومات ومعطيات موثوقة عن التطورات الجارية في الهند، بعدما بات واضحاً ان مونتباتن، نائب الملك في الهند، هو في الطريق نحو تصفية آخر وجود للامبراطورية البريطانية في الهند. وكان فيلبي خير من يقوم بذلك، بفضل مداخله الواسعة في البلاد، وقد استقبله مونتباتن بالفعل.

عندما راهن ابن سعود على ما يشبه حرباً عالمية وشيكة، لم يكن هناك في الواقع ما يشير إلى احتمال تراجع بريطانيا عن مركزها كقوة عالمية قادرة على ممارسة النفوذ في الشرق الأوسط. ولم يتضح مبدأ ترومان جلياً الا من آذار 1947، حين اعلنت الولايات المتحدة التزامها الدفاع عن اليونان وتركيا ضد التوسع السوفييتي، (وكان الاتحاد السوفييتي قد شكل خطراً للتو على جارة ابن سعود، ايران، قبل ان تجبر القوات السوفييتية على الانسحاب من اذربيجان)، خسر ابن سعود رهانه الصغير ذلك، لكنه استمر متشككاً حيال سياسات الولايات المتحدة: لقد بقي امرأً محيراً له كاستراتيجي مع بعض التجربة، لماذا لا يلجأ الاميركيون سنة 1947 إلى استغلال واقع احتكارهم وحدهم للسلاح النووي؟

كذلك في موقفهم حيال الموضوع الفلسطيني، حيث استمرت الشقة واسعة بين موقفهم وموقف ابن سعود. أرسل الملك ابنه فيصل إلى نيويورك للتحدث أمام الأمم المتحدة ضد أي مشروع يتضمن تقسيماً لفلسطين، لكن فيصل واجه لا فشل الجهود العربية في منع صدور قرار التقسيم فقط (تشرين الثاني1947). بل واجه كذلك قدراً من الاهانة الشخصية. فقد تصدى لابن الملك في نيويورك متظاهرون يهود(40) كانت لهم تصرفات مشينة ونابية، الأمر الذي حمل فيصل على القول للمفوض الاميركي في جدة، انه إذا كان في مقدوره، وسيفعل، فلن يتأخر عن قطع العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة.

كان إقدام الملك على اتخاذ مثل هذه الخطوة، واستخدام ما بات يعرف بسلاح النفط العربي، قد طرح مراراً في مجلس ابن سعود، ومن قبل زوار من الخارج. لم يفت ابن سعود، بالتأكيد، كون بلاده تعتمد كلياً، إذا استثنينا الحج، على مصدر دخل وحيد مشروط بعلاقات وثيقة مع الدولة

نفسها التي تعمل اقصى ما في وسعها لسلب العرب حقوقهم في فلسطين وتسليمها إلى اليهود.
ويصف الزركلي حالة الاحباط التي ظهرت على ابن سعود في حضور مستشاريه(41)، والى ان امتلأت عيناه بالدمع، قال لهم: "اني أفكر في الحالة التي وصلت إليها جماعتي وأمتي، وفي المصير الذي ينتظرهما".
كان ابن سعود في هذا الموضوع، كما في الكثير غيره، ثاقب النظر بعيدة، فردّ مراراً على الناس الذين طالبوا بقطع النفط بأنه من الافضل الحصول على الثروة وبناء قوتنا، من القتال بموارد ضعيفة، أو لا تكاد تذكر. لم يكن لديه اوهام بين سنتي 1947 و1948، في وضعية الموقف السعودي الصعب والذي سيعتبر مجرد تابع للولايات المتحدة في تمويل انشاء دولة اسرائيل، وكيما يضمن استمرار عائدات النفط، ادرك ابن سعود انه لا مفر من الانتهاء من المفاوضات الجارية، لانشاء خط انابيب نفطي من الاحساء إلى المتوسط (خط التابلاين)، فجرى توقيع اتفاقية التابلاين في صيف 1947.
كذلك واجه ابن سعود مشاكل إليه مسافة من فلسطين، إذ نقل له عملاؤه في كانون الثاني 1948 أنباء محاولة فاشلة جرت لاغتيال الامام يحيى امام اليمن. ثم حدث الاغتيال فعلاً في محاولة لاحقة في شباط 1948، والتي بلغته انباؤها بالتفصيل. وحين جاءه من يمثل الذين اعدوا للمؤامرة، بدا ابن سعود في منتهى الإدراك والحصافة، فلم يتورع عن ادانتهم في مجلسه علناً بوصفهم قتلة.
في آيار 1948، استقبل ابن سعود في جدة عبد الله بن حسين، ابن الملك السابق للحجاز، والذي غدا ملكاً لشرقي الاردن، أراد عبد الله، الدّ اعداء آل سعود وأكثرهم مرارة، من وراء هذه الزيارة لقلب ملكه الضائع كسب تأييد ابن سعود، ومباركته لخططه في مسألة فلسطين. وبالنظر إلى التسوية المتوقعة لوضع الأراضي التي ستترتب على الصراع المسلح في فلسطين، كان عبد الله يرغب بدمج منطقة الضفة الغربية في مملكة شرق الأردن . الا ان ابن سعود كان حذراً فرفض اعطاء موافقته على هذه الاقتراحات أو الخطط.
يمكن اعتبار سنة 1948 السنة الأكثر سواداً في حياة ابن سعود، وذلك بفقدان فلسطين، والمؤامرة في اليمن، وتهديد السلم العالمي من خلال حصار برلين، وتزايد مؤشرات الفساد الذي غزا البلاد. وكانت سرت منذ 1947 أنباء علنية عن بعض الفضائح من مثل حفلة شراب اقامها ابنه ناصر، ومات فيها سبعة اشخاص من جراء شراب كحول مستخرجة من الخشب، كان احدهم حفيد لابن الرشيد. هذا الشعور بالاحباط والحزن هو الذي دفع ابن سعود ليقول لفيلبي انه يتمنى لو أن الآخرة تأتي الآن.

الا انه وفي الفترة نفسها ايضاً ربما كان قد لاح ضوء في آخر النفق، إذ ان فنزويلا، أحد أهم منتجي النفط كانت قد نجحت في عقد اتفاق ينص على المناصفة في اقتسام العائدات 50 / 50. وعليه فقد تحركت السعودية بدءاً من التاريخ، وبعدوانية زائدة، على حد قول البعض، في محاولة لمضاعفة عائداتها من البترول. ولم يكن الملك مجرد متفرج في ذلك كله.

قاد المبادرة شاب سعودي تدرب في صناعة النفط المحلية وفي تكساس، وهو عبد الله الطريقي. عين الطريقي في هذا الوقت مراقباً مالياً على الانتاج في منطقة امتياز ارامكوا التي شكلت في آذار 1947. وتلفت ارامكوا غير اشارة إلى ان الأيام السهلة السعيدة لن تستمر إلى الابد. فأعطي امتياز جديد في القسم السعودي من المنطقة المحايدة الكويتية (لـ ج. ب. جي. تي. في باسيفيك _ وسترن). دعم عبد الله سليمان الطريقي وزملاءه باعتبارهم يؤدون مسؤولياتهم بوعي ودراية. وهكذا واجهت ارامكوا المزيد من التضييق والضغط لزيادة الرسوم والعائدات على استخراج النفط وتصديره. وفي سعيها لتوسيع وتطوير استغلال الموارد النفطية، بدأت ارامكوا أعمال تنقيب باتجاه حدود قطر. غير أن الخطوة الأهم التي سمح بها ابن سعود في هذه الفترة هي التقدم في تشرين الأول 1949 بمطالب حدودية جديدة على طول القسم الشرقي من حدود البلاد. فمنذ أيام مفاوضات راندل في الخارجية سنة 1937، كانت هذه المسألة معلقة ومن دون حسم. وقد كان الأمير فيصل، المفاوض النفطي الرئيسي حتى وفاة والده، واضحاً في أن الأمر الواقع القائم غير مقبول، الا أن جرعة المطالب التي قدمت كانت كبيرة في الواقع.

فقد تضمنت المطالب السعودية في المناطق الشرقية الآن، وللمرة الاولى، البريمي، على وجه الخصوص، والتي لم ترد على الارجح بين الخطوط الملونة الكثيرة التي طالما رسمت بين 1913 و1949. تمثل الحدود المقترحة من قبل السعوديين مطالبة بحوالي 80% من مساحة مشيخة ابو ظبي بما فيها واحة ليوا مسقط رأس آل نهيان حكام المشيخة، والتي كانت بين اراضي ابو ظبي وفق اللائحة السعودية لعام 1935.

وجدت الحكومة البريطانية نفسها الآن ملزمة بأخذ المطالب السعودية بجدية بالغة، وأعدت رداً شاملاً عليهاً. الا أن القصة بكاملها، منذ مبادرة الحدود هذه سنة 1949 وحتى وفاة ابن سعود، ما هي غير فصل آخر من ذلك التفاهم المفقود بين الطرفين. ومع دور فيلبي في المسألة، فانه كان محقاً في أن الجدل مع بريطانيا قد جلب لابن سعود اضطراراً وإحباطاً . ورجح ان مطالب الحدود الشاملة هذه انما استندت إلى تصور ان بريطانيا المنهمكة في تصفية التركة الاستعمارية بقيادة حكومة شمالية، لن تكون لديها الرغبة في المواجهة مع العربية السعودية دفاعاً عن المشيخات التي ترتبط معها باتفاقية شاملة.

وفي الفترة نفسها تقريباً، كان لابن سعود مبادرة مختلفة باتجاه سوريا. فالجمهورية الحديثة الاستقلال كانت تمثل لابن سعود اهمية مزدوجة، كشريك في مواجهة اسرائيل من جهة، وفي مواجهة الهاشميين من جهة اخرى، في كل من العراق وشرق الأردن (الذي بات يدعى منذ 2 حزيران 1949 بالمملكة الأردنية الهاشمية)، ومنذ صيف 1949، بدأت الاتصالات بالحكومة السورية، وجرى تقديم قرض لها بقيمة6 ملايين دولار، يؤخذ كسلفة من رسوم ارامكوا. وبلغ تداخل النفط والسياسة الدولية في هذه الفترة الانتقالية حدّاً متقدماً، فكان من جراء ذلك ان بدأت ارامكوا خلال العامين 1949و 1950 بالضغط، مطالبة بتسديد سلفة الـ 6 ملايين دولار، مع علمها بعجز الموازنة السعودية، فأبلغت ارامكوا، بواسطة محامي مصري يعمل لدى وزارة المالية السعودية ان الحكومة السعودية، وفي إطار سيادتها، ليست ملزمة بالتقّيد بنصوص الاتفاقية الأصلية(42). هذه الخطوة الجديدة مع خطوة سابقة تمثلت في استبعاد ارامكوا عن المنطقة الحرة، كانت تنبيء بتطورات عاصفة ستهب على سوق النفط.

ولم يكن حظ البريطانيين بأفضل في الفترة، وخصوصاً فيما يتعلق ببعثتهم العسكرية. فالبعثة التي وصلت إلى البلاد عام 1947، للمساعدة في أعمال التدريب، غدا عملها اكثر صعوبة وسط الجو البارد الذي يسود العلاقات السعودية البريطانية بسبب مسألة فلسطين والحدود الشرقية، وشعرت البعثة تدريجاً انها غير مرغوب فيها، بل بدا واضحاً سنة 1950، أن مغادرتها اصبحت مسألة وقت لا أكثر.

في المقابل، بذلت بعض الجهود للحفاظ على العلاقة بين البلدين. ففي كانون الثاني 1950، قام دوق ادنبره، زوج ملكة انجلترا، الذي كان ما يزال في البحرية الملكية، قام بزيارة جدة على متن سفينة تشكرز (Chequers)، فجرى استقباله من قبل الملك والامراء بكثير من الحفاوة ومظاهر الصداقة(43). الا ان اصداء الزيارة الطيبة نقضتها أنباء تشكيل قوة، بريطانية للخليج الفارسي، تخلف "كشافة الساحل المتصالح" وكانت هذه القوة التي تضم جنوداً من عمان والساحل المتصالح، مع ضباط بريطانيين، مرسوماً لها أن تلعب دوراً محدداً وحاسماً في تطورات أزمة البريمي.

مع العام1950،تكون قد مرت خمسون سنة هجرية (اسلامية) على استعادة ابن سعود للرياض، وقد جرى الاستعداد لاقامة احتفالات واسعة بالمناسبة، تعم المراكز الاساسية في البلاد. إلا ان ابن سعود اجبر، في اللحظة الاخيرة، على الغاء هذه الاحتفالات بسبب اعتراضهم "العلماء" وقد كان ذلك تقييداً واضحاً لسلطة الملك.

ومع ذلك، ورغم الشائعات المتزايدة عن تفاقم عجز ابن سعود، فمن الواضح أنه استمر على رأس السلطة، يمسك بالمسائل كلها، كبيرها وصغيرها. فحين وصل ولفريد تسيغر إلى صلايل، سنة

1948 من دون إذن الملك، لم يكن أمام حاكم المنطقة غير استشارة الرياض، فجاءته تعليمات ابن سعود الصارمة باعتقال تسيغر. ولم يفرج عن هذا الرحالة الا بعد تدخل شخصي من فيلبي.

وفي الخط نفسه، يجب ان نتذكر انه ما من طائرة تهبط أو تطير، وبخاصة في الرياض، من دون إذن الملك. كذلك يجب ألاّ نغفل عاملاً آخر مهماً وهو استمرار ابن سعود قائداً عسكريا عاماً للقبائل. وقد شكا السفير البريطاني في جدة إلى الحكومة السعودية من قلق لندن من غارات القبائل التي تدين بالولاء لابن سعود على مناطق محمية عدن. ومثل هذه الغارات المقابلة كانت ما تزال مستمرة في تسميم العلاقات بين العراق والعربية السعودية حتى سنة 1950 _ 1951 .

وعانى الملك، في هذه الفترة ايضاً، من حزن آخر إضافي، وذلك بموت شقيقته المفضلة نورا، في صيف 1950. فقد اعتادا ان يكونا دائماً قريبين، حتى قبل استعادة الرياض، وكانت على الدوام مصدر تشجيع له وبخاصة في ظروف الحملات الحرجة. أما بعد انتهاء هذه المرحلة، وبعدما غدا في وسع الرياض ان تنعدم بحسنات الهاتف، فان أول خط جرى تركيبه بعد خط الملك كان ذاك، الذي يصل إلى بيت شقيقته نورا(44).

ثم كانت اندلاع الحرب الكورية في حزيران 1950، حدثاً بالغ الأهمية تابعه ابن سعود بعناية، وفق ما نقله دبلوماسيون اميركيو تباحثوا معه في الوضع الدولي مطولاً. وقد ارسل ابن سعود سفيره في واشنطن إلى وزارة الخارجية الاميركية ليؤكد تضامنه في مسألة كوريا: "انا معكم، اريد ان تدركوا ذلك(45)" إلا أنه فضل عدم اصدار موقف رسمي علني، بانتظار معرفة مواقف البلدان العربية الأخرى حول الموضوع.

تنوعت علاقات ابن سعود بالدول العربية، وعرفت هذه العلاقات الكثير من الاتفاق أو الاختلاف، تبعاً للفارق في انظمة الحكم، إلا أن العلاقة مع الهاشميين استمرت أبداً موضوع الساعة.

ففي كانون الثاني 1950، نقل تشايلدز إلى واشنطن أن ابن سعود قلق جدياً مما سماه حساسية الوضع مع الهاشميين وبخاصة الأردن .وفي حين أنه، لخمس سنوات خلت كان يظن أن في وسع البريطانيين لجم طموحات الهاشميين، فما من شيء يجعله اليوم يطمئن إلى هذا الأمر، والولايات المتحدة وحدها بالتالي قادرة على الطمأنة وعلى تقديم الضمانات المطلوبة. لكن ابن سعود بحسب ما يقوله تشايلدز، لم يتلقّ أي تأكيد واضح يقول إن الولايات المتحدة مستعدة لحمايته من خطوة هاشمية باتجاه استعادة الحجاز.

حظي ابن سعود، في هذه الفترة، بالكثير من اهتمام وزارة الخارجية الأميركية، فالدبلوماسية الأميركية كانت في مفاوضات مستمرة مع رجال النفط الاميركيين، حول انعكاسات التطورات النفطية العالمية الواسعة، كاتفاق المناصفة الفنزويلي. ولم يكن هناك مفر من عقد اتفاق مناصفة

مماثل بين أرامكو والعربية السعودية. وقد جرى توقيعه بالرياض في 30 كانون الأول 1950: "لقد حقق ابن سعود الآن انتصاراً كبيراً، لعله الاكبر خارج ساحات القتال"(46).

الحياة العائلية

تزوج ابن سعود في هذه الفترة بزوجتين، ولدتا له أبناء أحياء وهاتان الزوجتان هما:

فطايمة التي تزوج بها سنة 1946، والتي ولدت له في العام التالي حمّود، آخر ابن حيّ له.

14 زوجة غير معروفة ولدت له ثلاث بنات.

الفصل الحادي عشر

النهاية 1951 _ 1953

ليس هناك بالتأكيد من كنز مخبأ ينتقل عند موت عبد العزيز إلى عائلته.

ك. ويليامز، ابن سعود، ص، 256

هل يصلح الأبطال أن يكونوا حكاماً؟ ليس هذا.

فاندر مولن، 1952 بعد زيارة أخيرة لابن سعود في آيار. ابن سعود، ص 257

في سنة 1951 يصف كتاب العام الذي تصدره The staesman ابن سعود كما يلي:

للملك ثلاثون ولداً، ابرزهم سعود، ولد سنة 1905، الوريث المحتمل، فيصل ولد سنة 1907 وزير الخارجية ونائب الملك على الحجاز، منصور ولد سنة 1921، وزير الدفاع، محمد، ولد سنة 1913 أمير المدينة(1).

ولأنه اخطأ في بيان عدد أبناءه وكانوا قد تجاوزوا الاربعين، وأخطأ في تحديد تواريخ ميلاد أبرزهم فلا غرابة أن يمضي المرجع كذلك، فلا يجد شيئاً يذكره تحت خانة التعليم.

يقال في ابن سعود، وقد بلغ أواخر أيامه. أنه انتهى إلى نتيجة (2) محبطة تمثلت في أنه يفعل شيئاً في تحضير البلاد لمتطلبات العالم الحديث، وفي تطوير مواردها الانسانية. كتب محمد أسد يقول:

يتحدث الآن خيرة الناس في نجد بمرارة، ويقولون إن ثقتهم تلاشت ....عندما رأيته [الملك] للمرة الأخيرة في خريف 1951 ... بدا لي أنه بات مدركاً أخيراً ما ضاع من حياته.... فعندما يتحدث عن نفسه، يبدو وكأنه يتحدث عن شيء مات الآن، ودفن خلف حدود الذاكرة.

ومع ذلك فبالامكان رؤية المسائل في ضوء مختلف. كان ابن سعود، وفي سائر مراحل حكمه، مدركاً للقيود المفروضة على حريته في العمل، وأن عليه، في مسائل التعليم وإدخال التكنولوجيا الحديثة ووسائل الاتصال، وسبب التشدد المفرط لدى العلماء، أن يتقدم بحذر شديد وبخاصة في مسألة تعليم الشباب.

استطاع ابن سعود أن يحل مشكلة تعليم أمراء العائلة الملكية رغم معارضة فيلبي(3). فعندما ذكر الموضوع في مجلس الملك، لخص ابن سعود موقف الرجل، الذي كان يسعده تسميته بما يشبه المعارضة لحكمه، بقوله: "فيلبي لم يرد لي ان أعلم أبنائي".

وعلى ذلك، فقد أمر بمدرسة خاصة في القصر، عرفت بـ "مدرسة الامراء" لا رغبة في قصر التعليم في العربية السعودية أن يأخذ دائماً في الحسبان، وكما هي الحال الآن، رغبات المؤسسة الدينية، وحتى الأيام الاخيرة من حياته، سمح ابن سعود بهيمنة الموقف الذي يؤكد أن التعليم كلّه يجب أن يكون دينياً، مع تركيز خاص على تعليم القرآن والسنّة والفقه الاسلامي.

اختار ابن سعود الطريق الأقل ممانعة باختياره تعليماً خاصاً للعائلة المالكة، وعدم معارضة قيام مشاريع تعليم خاص داخل البلاد، أو تحصيله في الخارج. وبقيت مصر ولبنان وسوريا المراكز المفضلة، طيلة حياة الملك، لتلقي التعليم ما فوق الاساسي. وجذبت مصر سنة 1950 شباناً سعوديين بلغوا المئات: كان هناك 206 طلاب في جامعتي القاهرة الحديثتين، 30 في الازهر، و 11 في كلية فيكتوريا. ولكلية فيكتوريا تخصيصاً فضل إتقان اللغة الانجليزية لدى أعداد من الشباب السعودي الذين تولوا مراكز حساسة في الستينات، مثل عدنان خاشقجي، وهشام ناظر وافراد من الاسر التجارية الحجازية، ذلك أن الكلية كانت تتبع اتجاهات التعليم العام في انجلترا. وباتت الانجليزية لغة هذا الوسط، على حساب العربية تماماً، وحتى الكريكيت اضحت جزءاً من العدة الثقافية للشباب السعودي هذا. وقدم لبنان لا التعليم الجامعي فحسب، مع اكثر من مئة طالب سعودي في الجامعة الاميركية في بيروت بين 1949 و1952، وانما التعليم الثانوي كذلك، حيث بدأت اسر سعودية عديدة بارسال أبنائها إلى مدارس في لبنان، وعلى سبيل المثال، مدرسة كويكر في برمانا. كما ارسلت شباناً آخرين لتلقي التعليم العالي في كلية حلب(4).

اما الوضع التعليمي داخل العربية السعودية نفسها، فقد كان هناك بداية، وان متواضعة أو خجولة، في ادخال التعليم الاساسي بمساعدة مدرسين ونظار مصريين. وفي حدود سنة 1950، أمكن التوصل إلى نوع من التخصيص، فكان هناك مدارس تعليم اساسي، مدارس تعليم أساسي ريفية، ومدارس تعليم ثانوي ومدارس اساسية. ولمعرفة مدى تواضع هذه البداية يكفي الالتفات إلى عدد الطلاب في المدارس النهارية في مختلف انحاء البلاد في عام 1950، إذ لم يصل العدد الملكي لهؤلاء في مختلف مدارس البلاد الا ما يقارب 20000 طالب، وبقيت مسألة وجود تعليم عام للبنات أمراً خارج التداول تماماً.

في الشأن الصحي، أبدى الملك على الدوام اهتماماً خاصاً بهذا القطاع، والشواهد على ذلك كثيرة، الا أنه غالبا ما قيل إن اهتمامه بمسائل الصحة العامة كان دون ذلك(5). برز اهتمام ابن سعود

بهذا الشأن في فترة مبكرة، فقد أمر في العشرينات باتخاذ اجراءات محددة لمنع الاوبئة في أثناء الحج. الأمر الذي يتناقض تماماً مع الاهمال غير المسؤول لاجراءات الصحة العامة في عهد حسين بن علي. ومع توافر المال الناتج عن عوائد النفط في نهاية الأربعينات، تحرك ابن سعود قدر الامكان، وضمن حدود الامكانات المالية والمساعدة الاميركية والطاقة البشرية المتوافرة، لإرساء بدايات نظام رعاية صحية(6). وقبيل وفاته كان هناك مستشفيات في الرياض في المنطقة الشرقية في مكة وجدة والطائف. كما زادت ميزانية الصحة، قبل سنة من وفاته، من مليوني دولار إلى سبعة ملايين دولار، إلى ثمانية ملايين أخرى مرصودة للابنية والتجهيزات. وكانت خطط تلك السنة تقضي، كذلك، بانشاء 38 عيادة في انحاء البلاد المختلفة، فضلا عن عيادات نقالة لمناطق البدو. وفي سنة 1951، ومع المساعدة الاميركية، أمكن استئصال الملاريا نهائياً من واحة جبرين، وهي التي استوطنت فيها طويلاً. واتخذت اجراءات مماثلة في منطقة خيبر، شمال المدينة، حيث استصلحت الاراضي التي كانت مستنقعات تتجمع فيها مياه آسنة، وقضي، بالتالي، على بقعة توالد البعوض وتكاثرها. وكان ابن سعود قد رحب منذ الاربعينات ببحاثين مشتغلين على مسائل الجراد والملاريا، بهدف اعداد مشروع بعيد المدى، يقضي نهائياً على وجود الملاريا.

في مسائل الدفاع عن المملكة، أظهر ابن سعود، كما رأينا في مباحثاته مع سفير الولايات المتحدة،حرصاً مطلقاً آخذاً في الاعتبار صغر حجم قواته النظامية ومحدودية ما يمكن ان تؤديه، حتى في مواجهة جيش متواضع، ولكن تتوافر له القيادة المحترفة والتدريب المحترف. مثل هذه القوات هي التي للاردن. ولأن التهديد المحتمل من الأردن موجود في البال، فقد حرك ابن سعود، في السنة الاخيرة من حياته، معظم جيشه إلى الحجاز مخافة انشقاق الحجازيين. وكان الملك قد حاول، في نهاية الاربعينات، الحصول على تدريب أفضل لجيشه النظامي، باستقدامه بعثات تدريب بريطانية واميركية، غير أن التقدم الذي تحقق في هذا المجال كان محدوداً ومتواضعاً. وكان إيجاد سلاح جوي حلماً للمستقبل، لكنه لم ينجز غير القليل، عدا ما كان موجوداً من تدريب لبضعة طيارين سعوديين على ايدي الطليان قبل الحرب. الا ان تدريب الطيارين بدأ مع الاميركيين، الذين وقع معهم ابن سعود في آخر حزيران 1951، اتفاقية تسمح لهم باستخدام قاعدة الدمام الجوية، والتي كانوا قد بنوها سنة 1946.

والبحرية ببساطة لم تكن موجودة، وعليه فلقد كانت حماية السواحل والمياه الإقليمية تعتمد على استمرار العلاقات الطيبة مع دول الجوار، ومع قوى الحماية الدولية.

ومن أجل التنسيق بين النشاطات الدفاعية القائمة، والتأسيس لخطوات لاحقة، أوجد ابن سعود الوزارة الرابعة في نظام حكمه، وزارة الدفاع، وذلك سنة 1946، وسلم مقاليدها إلى ابنه منصور، البالغ من العمر 25 عاماً يومذاك، ليكون،أول وزير دفاع للملكة.

والوزارات الثلاث الأخرى كانت: الشؤون الخارجية، والداخلية، والمالية التي كان عبد الله سليمان ما يزال يشغلها. ورغم أنه كان قد أصبح الآن، حسب وصف مسؤول بريطاني، "العجوز السكير البالي"، لكنه كان عملياً يمسك لا بخيوط وزارة المال فحسب، وانما كذلك بالوزارة الجنينية الجديدة للاقتصاد الوطني، وبعدد من المديرين المعنيين بالصحة والتربية والنقل والمواصلات. ولأن دوام عمل الوزير كان محدوداً سنة 1951 تحت تأثير الشرب، في نحو ساحة ونصف الساعة يومياً، فقد كانت البلاد تغرق بسرعة في حال من الفوضى الكاملة. وحسب السفير الاميركي في ملاحظة له إلى واشنطن بتاريخ 11 حزيران 1951، فان "التنظيم هو آخر ما يعني هذه الحكومة(7)".

ومع أنه يمكن الحديث عن وزراء منفصلين، الا أن ابن سعود، وحتى اللحظة الاخيرة من حياته تقريباً، كان يمسك ويسيطر على نشاطات الحكومة كلها، في المجالات كافة، وعليه، فانها مسؤولية ابن سعود، في ان تبقى ادارة الأموال ومستقبل المملكة على مثل الحال التي كانت عليها من بدائية وفوضى.

ويجب أن يقال إن الملك يتحمل المسؤولية كذلك في رفضه الافكار الاصلاحية وخاصة في مسألة إدارة ثروة البلاد. ففي سنة 1951، عاد نجيب صالحة نفسه، الذي عزل سنة 1943، مع مخطط ينقل ادارة الشؤون المالية الحكومية إلى مستوى العصر، بحيث يكون هناك حد أدنى من وسائل تحديد الانفاق. لم يلتفت الملك إلى تلك الأفكار الاصلاحية المتواضعة، بل أحالها على سعود، الذي رفضها كلياً. بقي صالحة وحاول إدخال أفكار تتعلق بالضريبة على الدخل، ولكنها كانت من دون نتيجة أو تأثير، إذ كان أفراد العائلة المالكة والعلماء منذ البدء معفين، ثم التجار بعد احتجاجات عنيفة. كانت ادارة أموال الموازنة في منتهى السوء(8)، فكانت نسبة ثلثي نفقات موازنة 1950 _ 1951 تقريباً، مخصصة "لقصور الدولة والأمراء والمؤسسات الملكية". وخفت هذه النسبة في موازنة 1952 _ 1953 لتصبح الربع، مع ما لا يقل عن سدس (1/6) الانفاق لخدمة الدين العام. وقدر نجيب صالحة مجموعة ديون المملكة، سنة موت الملك، بين 150 إلى 200 مليون دولار بينما كانت عائدات النفط،مع ارتفاع اسعار سنة 1951، لا تتجاوز 110 ملايين دولار تقريباً، وعليه، فقد كانت الخطوة الصحيحة والضرورية، هي تشكيل الوكالة المالية العربية السعودية(البنك المركزي لاحقاً)، وإن لم يكن بهدف الانقاذ في المدى المنظور، فكمحاولة، على الاقل، لترشيد استخدام عائدات النفط. أقر الملك تأسيس الوكالة في أيار 1952، بناء لنصيحة

اختصاصيين اميركيين زائرين، وهكذا لم تعد الجبايات لتودع حساب عبدالله سليمان في نيويروك، وإنما في الـ SAMA [الوكالة المالية العربية السعودية].
كذلك كان للملك قرار خطير آخر يتعلق بعمليات النفط وهو اجباره ارامكو على نقل رئاسة علمياتها من نيويورك إلى الظهران. وكان لهذه الخطوة تأثير كبير في تركيز انتباه مسؤولي الشركة على الوسط المحلي، وتطوير القوة العاملة المحلية، وخلق فرص عمل محلية جديدة. وهناك حالات كثيرة لموظفين سعوديين في ارامكو بدأوا العمل بتقديم خدمات نقل أو طعام أو ما شابه إلى الشركة، وبدءاً من هذه البدايات المتواضعة اطلقوا ليصبحوا بعد ذلك اغنياء جداً. والشيخ سليمان عليان واحد منهم فقد بدأ سائق شاحنة في ارامكو براتب شهري هو 300 ريال، ليصبح بعد ذلك بليونيراً.
هذه القصص تمثل النهايات السعيدة لوجود ارامكو في البلاد، غير ان هذه الخواتم المناسبة والناجحة لم تتحقق الا بعد الكثير من التحارب المرّة، فقبيل وفاة ابن سعود بقليل، توقفت العمليات البترولية بكاملها تقريباً، إذ اضرب في تشرين الأول 1953، 17000 عامل من اصل 19000 عامل مطالبين بأجور أعلى وشروط عمل افضل.
وجاء الإضراب بعد التماس تقدم به في ايار 1953 الموظفون السعوديون وغير الاميركيين عموماً يطالبون فيه بتحسين ظروف السكن، ورفع الاجور وتقديمات أخرى. فقد كان هناك انفصام تام بين التقديمات الممنوحة للاميركيين الذين يحيون في الظهران حياة بلدات الخمسينات الاميركية، وبين ظروف سكن باقي الموظفين والعمال، من سعوديين وفلسطينيين وعرب آخرين وعزلتهم عن اسرهم من جهة ثانية. ولأنه لم يكن مسموحاً لارامكو التفاوض مع الاتحادات العمالية، فقد جرى التفاوض خلال الصيف مع مقدمي الالتماس وعلى سبيل التشاور، إلى أن دلت الحكومة السعودية طرفاً في هذا الاشكال. رفض المطالبون الرد على استيضاحات مسؤولي الحكومة السعودية، وأصروا على مطالبهم. وبالتالي انفجرت مظاهر غضب عفوي، على الارجح، فهوجمت مراكز الشرطة وآليات الشركة، فجرى ارسال آلاف الجنود مخافة تخريب منشآت النفط لكن المواجهة لم تقع وجرت عودة تدريجية إلى العمل، قبيل وفاة الملك بقليل.
كانت السنتان الأخيرتان في حياة الملك، ومن دون شك، فترة أحزان شخصية وآلام جسدية. فهو لم يصبح عاجزاً عن الانجاب فحسب، بل إن إبناً مفضلاً عنده وهو منصور، مات في باريس بعد عملية جراحية أجريت له، وذلك في ايار 1951، وجلب له ابن آخر، هو مشاري، حزناً من نوع مختلف وذلك حين اردى بالرصاص، وهو في حالة السكر، مهندساً بريطانياً عاش في المملكة لسنوات. اما اكثر الآلام الجسدية التي عانى منها الملك فهي الآثار المتراكمة لجراح في الركبة جعلته، تقريباً، عاجزاً عن الحركة تماماً. وادت حالته تلك إلى زيادة ملحوظة في وزنه، الأمر

الذي زاد في آلام ركبتيه. وأدى ابن سعود حجة الأخير سنة 1951 وسط حرارة عالية بعدما ناب عنه ابنه سعود في حج 1950. كذلك فاته حج 1952، اما الذهاب إلى مكة سنة 1953، وسط حرارة الصيف اللاهبة، وفي ظروفه الصحية المعروفة، فقد كان امراً غير وارداً. وبدلاً من ذلك لجأ الملك إلى برودة الطائف بعد انجاز آخر عمل له كملك، وهو توقيع إرادة تشكيل مجلس للوزراء، أملت فيه السفارة الاميركية "ان يجلب النظام إلى حالة الفوضى الراهنة التي تسود الادارة(9)".

في 8 آب 1953، هبطت طائرة الملك، ال BC-3 التي اهداها إليه الرئيس الاميركي، في حقل جوي قرب الطائف. وحين نقل من الطائرة إلى السيارة التي اقلته إلى قصره الصيفي، ويروي

الزركلي(10) الذي حضر المشهد، ان نظره كان زائغاً وانه لم يتعرف على احد من المحيطين به. تصرف افراد عائلته بسرعة، وكان سعود وفيصل إلى جانبه على الدوام. ويذكر الزركلي أن الملك لم يتوقف عن ترداد أن على سعود وفيصل العمل معاً بعد موته، إلا أنه ومن باب المفارقة أن يغادر سعود مؤقتاً إلى جدة في اللحظة التي كان فيها ابن سعود يلفظ أنفاسه الأخيرة بين ذراعي ابنه الثاني فيصل، في التاسع من تشرين الثاني 1953.

وبعد حفل تنصيب سعود، حمل النعش إلى الرياض ووري الثرى في مدفن دون أي علامة تميزه أو تدل عليه. اما الذي يسعى اليوم للعثور على مكان الراحة الابدية ذاك، فعليه أن يسأل رياح الصحراء والنجوم الباردة في ليل شبه الجزيرة العربية(11) .

بيعت ثياب ابن سعود في السوق. ألم يقل هو لفيلبي في آخر حديث له معه، ربما: "أعدى اعداء المرء ممتلكاته وابناؤه(12)".

الحياة العائلية

كان للملك في هذه الفترة، في حزيران 1952، ولد قالت فيه الصحافة انه الطفل الرابع والستون للملك(13)، الا انه مات باكراً.

الفصل الثاني عشر

كلمة أخيرة

فيصل، سعود أخوك

سعود، فيصل أخوك

لا حول ولا قوة الا بالله.

الكلمات الاخيرة للملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود.

ومن الجامع، مباشرة إلى اليسار من المدخل، تعلو الدعوة إلى الصلاة، تؤشر إلى أجزاء النهار يمضيه الزائر استعلاماً وبحثاً، واذا فتح المتحف، ففي وسع الزائر ان يشاهد عينات من السيوف

التي حارب بها ابن سعود، ومن سيارات الأربعينات الاميركية التي استخدمها، ومن الكتب التي قرأها، والكراسي التي جلس عليها. واذا جعل الزائر طريقه صعداً عبر الدرج، فإن اول ما يطالعه هو رسم زيتي للقاء الملك مع روزفلت، وآخر للقائه مع تشرشل، وخلفها تسهيلات البحث الموقوفة لدراسة حياة مؤسس المملكة العربية السعودية.

هناك الكثير مما بقي، ويجب انجازه من التنقيب في حياة هذا الرجل الصعب، الذي كان لخمسين سنة، مصدر القرارات والسلطة كلها، والذي تردد اسمه لخمسين سنة، في الغالب، في سجلات القوة الدولية الأكثر حضوراً في شؤون شبه الجزيرة العربية، بريطانيا. هناك الكثير مما كتب عن المراحل المختلفة في سيرة ابن سعود وحكمه، وهناك ما يخصه هو نفسه حول احتلال الرياض سنة 1902.

عن شخصيته شخصية مركبة بمقدار تنوع صوره: وأحد ما يثير الفضول في صور ابن سعود القائمة هي انها لا تبدو في الغالب وكأنها للرجل نفسه، حتى في المرحلة الزمنية الواحدة. أخبار قسوته البالغة مع أخصامه، والأمر بقتل السجناء أو الاسرى، أخبار يصعب تصديقها إذا جمعت إلى أخبار سخائه وكرمه وعواطفه الجياشة حتى البكاء. وروايات سورات غضبه أو ضربه خدمه، أشياء معروفة وشائعة كسحره وأدبه. بهجته في ملاعبته اطفاله تنقض خبر قلة اكتراثه بهم وهم يكبرون أو يغدون شباناً.

ايكون صحيحاً ما كتبه محمد أسد، في السنة التي توفي فيها ابن سعود عن أن "فشله انما يكمن في كونه اخفق في ان يكون بمقدار ما أراد له الناس أو رأوا فيه.... لقد بقي باختصار زعيماً قبلياً خيّراً، ولكن في إطار اوسع بكثير(1)".

وللاجابة عن هذا السؤال، ربما كان من المفيد تحليل قصة حياة ابن سعود وانجازاته تحت العناوين التي اقترحت في الفصل السادس، ابن سعود في الخمسين.

إلا أنه يبدو، وفي الآن عينه، أن مثل هذا التقسيم للموضوع ربما كان مضللاً، لأن الكثير من هذه العناوين متداخل في الحقيقة: فقرار ابن سعود الحاسم سنة 1922، الذي قضى بتنصيب ابنه سعود ولياً للعهد، يمكن النظر إليه تحت عناوين مهام ابن سعود المختلفة، كرئيس للعائلة، كملك، كزعيم قبلي، وربما ايضاً كقائد ديني: لأنه يدرك تماماً وبوصفه مسلماً حقيقاً أن الاسباب الكبرى للشرخ الذي اصاب الأمة الإسلامية، انما تكمن في أن الرسول لم يعين أو يسم خلفاً له من بعده.

ومع ذلك فهناك اكثر من سبب أو مبرر للبحث في تقييم ابن سعود إما لجوانب محددة في شخصيته، أو سلوكه، وذلك تحت العناوين العشرة المقترحة.

هو أولاً العاهل، أو الملك ومن الطبيعي أن يكون بهذه الصفة شخصية معروفة عالمياً، وحتى وفاته كان الزعيم الذي بقي في سدة الزعامة الفترة الأطول على الاطلاق، وأكثر من أي رئيس أو ملك

آخر مع سنة 1953 يكون ابن سعود قد قضى 25 سنة، على أقل تقدير، حاكماً هو الكل في الكل في تسيير شؤون بلاد شاسعة لم يكن لها قبل ان يصبح هو فيها ملكاً على المملكة العربية السعودية، غير موارد لا تكاد تذكر في حين بلغت مداخيلها عند وفاته ومن مصدر النفط وحده، مئات الملايين من الدولارات. لم يتخذ قرار واحد يخص شؤون البلاد دون الرجوع اليه، حتى في سنتيه الصعبتين الأخيرتين. بل أظهر فضلاً عن ذلك، اهتماماً خاصاً بالا تحجب متابعته للقضايا العالمية والمالية الكبرى، حسن متابعته ورعايته لحاجات الناس العاديين ومصالحهم. فقد اصدر تعليمات صارمة بأن كل الالتماسات المرفوعة إليه يجب ان تصل إليه كما هي من دون أي تأخير اوتعديل.

لم تكن ممارسة ابن سعود لمسؤولياته كزعيم لشعبه كله موضع نقاش. لكن السؤال الذي ظل قائماً هو مدى ما قام به فعلاً، لتأمين قيام حكومة جيدة وادارة سليمة قادرة على التعامل مع قضايا البلاد. ومنذ العام 1945، واجهت العربية السعودية الحاجة إلى التكيف مع الدور الذي احتلته في السياسة الدولية، إلا ان ما أنجز لتحقيق ذلك الهدف، وبعد ثماني سنوات، أي إلى وفاته، كان قليلاً جداً، وبخاصة في مجال الاعداد المنهجي لمتطلبات المرحلة الجديدة. فلم ينشأ نظام لمجلس وزراء يتضمن مسؤوليات محددة الا في السنة الاخيرة، بل في الشهر الأخير، قبل وفاته. لكن الخطة هذه كانت متأخرة جداً في الحقيقة، فقد كان الوزراء عاجزين عن وقف التدهور السريع باتجاه الفوضى التي شاعت في عهد ابنه سعود. وابن سعود يتحمل مسؤولية هذا التقصير في اعداد البلاد لمطالب المرحلة الجديدة، ولعل أهم العوامل المسؤولة عن وصول الأمور إلى هذه الحال، هو حصره كل الصلاحيات التنفيذية وسلطة القرار في يده وحده ولفترة طويلة، وكذلك في اختياره لإبنه سعود خليفة له.

واختيار سعود ربما كان مرتبطاً بثاني مهام ابن سعود، وهي دوره كزعيم قبلي. فأم سعود هي من بني خالد وليست من العائلات المرتبطة بآل سعود مثل السديريين وآل الشيخ، والذين كانوا يتزوجون منهم تقليدياً. وخلال شبابه، كان لسعود علاقات وثيقة بالقبائل، وكان له شعبية بينهم، كما أحب هو الانتقال بينهم. وفي العادة، فان سعود كان يتلقى سنوياً، ومنذ تسميته ولياً للعهد، ولاء اشقائه وزعماء القبائل:ومضمون هذه الاشارة واضح بما يعنيه من تجديد للولاء القبلي.

رأى ابن سعود، على الدوام، حاجة ماسة للحفاظ على ولاء زعماء القبائل، ولجأ بمهارة فائقة إلى سبل الاتصال التقليدية بهم، من خلال علاقات الزواج ورحلات الصيد وما شابه، كانت واقعيته تملي عليه الحاجة الدائمة لتأكيد ولاء القبائل والاستعداد لدفع ثمنه. وما عدم تصدع البلاد بعد موته سوى النتيجة الحتمية، إلى حد كبير، لمهارته في تأمين ولاء القبائل لآل سعود.

وكقائد عسكري، كان ابن سعود موهوباً والى درجة عالية. لم يحصل على تدريب رسمي في الشؤون العسكرية، الا أنه تعلّم في الميدان كيف يدير العمليات العسكرية، وحجم عملياته، وفق تقييم معظم العسكريين المحترفين، هو أكثر قليلاً من المناوشات، والغارات الفدائية، وعمليات حصار جرت من دون كبير احترام لمبادئ فوبان Vauban على سبيل المثال. الا أنها كانت كل الموجود "في الميدان"، وكانت حاسمة في إلحاق الهزيمة بمنافسيه المحليين، في طرد الاتراك ونيل اعتراف القوة الخارجية الكبرى يومذاك، بريطانيا. وفي حقبة ما، بعد الحرب العالمية الثانية، كان على ابن سعود ان يتكّيف مع استخدام سلاح الجو وظهور القنبلة النووية، وكان ناجحاً في ذلك، والى حد بعيد، رأى بوضوح الحاجة إلى أن يأخذ بالحسبان وجود قوة حماية خارجية، ولم يكن هناك شك ان ذلك يعني الولايات المتحدة: ولم تكن لديه مشكلة في ذلك سوى كيفية التوفيق بين هذا الأمر وتقليد الاستقلال السعودي والحاجة، كذلك، إلى مشاعر القومية المتنامية في الدول العربية الأخرى. واضافة إلى ذلك، ادرك ابن سعود حاجته إلى خبراء عسكريين أجانب يستجيبون لحاجات القوات المسلحة السعودية وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، ولم يكن ذلك ليعني عملياً غير الولايات المتحدة: إذ إن العلاقات مع بريطانيا كانت تمر في فترة حرجة بسبب الخلاف على البريمي. ورغم أن ما أنجز قبل وفاته كان قليلاً، الا ان الأساس كان قد أرسي لتطوير القوات المسلحة المحترفة.

ربما بدا من غير المألوف، أو حتى من الوقاحة، من وجهة نظر رب العائلة، التعاطي من الخارج في شأن خاص، إلا أن المسألة هنا مختلفة قليلاً، فأبناء ابن سعود هم الذين قدموا، وحتى تاريخه، جميع ملوك العربية السعودية منذ سنة 1935، وهم مستمرون كذلك على الأرجح. ولا يستطيع المتدخل من الخارج ان يقاوم إغراء البحث عن الفضائح غير القابلة للشك التي حدثت بين ابنائه (ولا اشارة إلى ذلك بين بناته)، وان يلقي اللوم، ولو إلى حد ما، على الأب لاخطاء ابنائه، ولأن ابن سعود قد أنجب الكثير من الابناء طوال خمسين عاماً، فان المجال واسع بالتالي ليدخل المرء في لعبة الاعداد وتسجيل النقاط، مع أو ضد. وكاتب هذه الصفحات يعتذر عن عدم خوضه في هذه اللعبة، ولكن في وسعه ان يقول انه لانجاز كبير لرجل واحد، ان ينجب هذا العدد من الابناء الذين نشأوا قادرين ومثقفين ومفعمين بالحيوية، في حين أنهم ولدوا في زمن كانت السمة الغالبة على العربية السعودية فيه، هي الفقر المدقع مع نقص الموارد التعليمية. لقد كانت ميزة لافتة في سيرة ابن سعود، كما عايشناها، اهتمامه الخاص بتعليم ابنائه،على قدر ما سمحت موارده يومذاك، واهتمامه بتوفير التعليم للشباب في بلده. وربما كان من المفيد الملاحظة، أن أول شاب غادر للدراسة في الخارج، انما كان في سنة 1927 ومباشرة بعيد أخذ ابن سعود للحجاز.

اعتبر ابن سعود نفسه على الدوام معلماً ومرشداً، وارتبط ذلك مباشرة بموقعه كامام، وهذا سبب استعداده لالقاء المواعظ وهو ما توقف عنده أمين الريحاني مع بعض النقد. لقد رأى أن الحفاظ على أوثق العلاقات مع المؤسسة الدينية في البلاد لاستمرار وجود الدولة السعودية، وعليه، فقد كانت اولى مقتضيات هذا الاحترام، أن يحظى كل تغيير يطرأ بموافقة العلماء، من دخول السيارات إلى التعليم، إلى البث الاذاعي والصحافة. وهو تحديداً ما يفسر البطء المحبط في التغيير في مجالات عدة بتاريخ الدولة السعودية الثالثة، خلال عهد ابن سعود وبعده. غير أن حكمة ابن سعود في ذلك كانت تقول: إن تغييراً بطيئاً من دون مشاكل كبيرة افضل من تغيير سريع يؤدي إلى انقسامات.

توفرت لابن سعود كرجل سياسة دولية، فترة طويلة فريدة من التدريب والممارسة. تعلم ابن سعود منذ بدأ يحضر مجلس الشيخ مبارك في الكويت، في تسعينات القرن التاسع عشر، سبل العالم كما تتبدى في مفاوضات بين الدول، وكان قادراً أن يرى خصوصاً سبل القوى العظمى في تعاملها مع الدول الصغرى أو الضعيفة ومع المحميات. وخلال عشر سنوات من استعادته الرياض، تمكن عموماً من إنهاء الوجود التركي في المناطق التي ستغدوا جزءاً من مملكته، ودخل مذ ذاك في علاقة وطيدة مع بريطانيا. ولم يتضح، الا في سنة 1945، أنه سيكون للولايات المتحدة دور في مستقبل العربية السعودية أكبر من دور بريطانيا، ولو كتب لسير بيرسي كوكس ان يعيش أكثر، لكان قام بالتأكيد بمراجعة ما قاله سابقاً، من أنه لم يخط ابن سعود قط خطوة عاثرة، ومن وجهة بريطانيا على الاقل. اما من وجهة نظر المصالح السعودية، فيمكن البرهنة على ان ابن سعود، وطوال خمسين عاماً، كان قادراً على ان يميز بدقة المكان الذي تقع فيه مصالح بلده.

ودور ابن سعود في رخاء بلده وشعبه بدأ مذ بدأ هو، وليس بين يديه غير بقعة صغيرة في نجد، وكان في وسعه ان يعتبر نفسه ذلك الجازور Jasur، أو الحيوان الذي يعد للذبح، ويكون للجميع نصيب فيه. لقد قدم وبشهادة الجميع، الطعام والضيافة والهدايا أو العطايا لآلاف الأفراد. وحين توسعت ثروته بما لا يقاس ظل كما هو. ولم ينظر إلى الثروة الناتجة عن النفط الا بوصفها ثروة شخصية تخص العائلة الحاكمة، ولتنفق على السكان وفق ارادة الملك.

والاستمرارية هذه تجد ما يشبهها في لعب ابن سعود لدوري وزير الخارجية ووزير المالية. وقد رأينا كي اضطلع شخصياً بعلاقاته الخارجية منذ زمن المنفى في الكويت، وكيف كان له شخصياً الدور الحيوي والأساسي في إدارة الأموال المتوافرة لديه، والى نهاية عمره فقط على تأسيس الوكالة المالية العربية السعودية. ورغم ان الخطوة هذه كانت متأخرة جداً، حين لم يكن في وسع الوكالة أن

تفعل شيئاً لوقف هدر الأموال في عهد الملك سعود، الا انها كانت على الاقل دليلاً على تحول ابن سعود التدريجي باتجاه قبول إدخال الخبرة الاجنبية في الإدارة السعودية.

والملمح الذي يبعث على الحزن أنه، وفي سبعيناته فقط استطاعت البلاد، التي اسسها، ان تمتلك الموارد التي كانت ستسمح له بادخال الانظمة والاجراءات القادرة، ربما على التخفيف من صدمة اولئك الذين رأوا ان معاناة البلاد ما تزال كما هي.

كان على العربية السعودية أن تواجه لاحدى عشرة سنة، عهد الملك سعود، ظهور ثروة تفوق حتى أحلام البخيل، ولكن كان عليها أن تواجه كذلك حقبة في تاريخ العالم العربي فريدة في استقطابها وذلك بتأثير :الحرب الباردة، والحرب الامبراطوريات، انتشار الافكار الجديدة عبر وسائل الاتصال والنشر الكثيرة، وانتشار التعليم. لم يكن في وسع أطول الانظمة عهداً وتاريخاً ان تحافظ على استقرارها في الخمسينات والستينات. أما ان تكون العربية السعودية قد استطاعت الخروج من النفق، فذلك عائد، بالدرجة الأولى، إلى قوة عوامل الاستمرار والاستقرار التي أدخلها ابن سعود ورعاها.